بسم الله الرحمن الرحيم

خطوط رئيسية لبعث الأمة الإسلامية

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد فمنذ ثلاث عشر سنة تقريباً كتبت هذه الرسالة والتي كنت أهدف من ورائها تحديد نقطة البدء للشباب المسلم الذي بدأ يسأل أين الطريق، وذلك بعد الهزيمة الماحقة في عام 1967م هذه الهزيمة التي أحدثت دوياً هائلاً، وزلزلة عظيمة في نفوس أبناء الأمة، وأرجعت الجم الغفير منهم إلى صوابهم ورشدهم. وأحمد الله سبحانه وتعالى فقد ساعدت هذه الرسالة بما قدره الله لها. في وضع كيفية البداية لشباب الأمة، وقد تلقفها الشباب في أماكن كثيرة بالدراسة وقامت جهات عديدة بطبع هذه الرسالة مرات عديدة وانتشرت بحمد الله على نطاق واسع. وشغلت أنا عن إعادة طبعها بكتابات أخرى ملحة. وكانت هذه الكتابات بحمد الله في عمومها بياناً لخطوات أخرى على طريق بعث الأمة الإسلامية. أعني أنها كانت استكمالاً لهذه الخطوط الرئيسة لتحقيق البعث الكامل للأمة الإسلامية. وكان من أهم هذه الكتابات -بحمد الله وتوفيقه- فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله، والطريق إلى ترشيد حركة البعث الإسلامي، والمسلمون والعمل السياسي.

ولقد آتت هذه الكتابات بحمد الله ثمارها وأسهمت بحمد الله في حركة التوجه الإسلامي المعاصر بما شاء الله لها أن تسهم وهذه آثار هذا التوجه -بحمد الله- قائمة شاهدة.

ولما كانت حركة البعث الإسلامي المعاصر في حاجة دائمة إلى كل هذه الخطوط الرئيسة، وكانت هذه الرسالة التي تمثل الخطوة الأولى في الطريق قد نفدت منذ زمن طويل، فإننا نقدم لأبنائنا اليوم هذه الرسالة كما صدرت في أول صدورها ونعتقد أن الزيادة التي كان يجب أن تزاد عليها هي ما كتبناه منفصلاً بعدها في هذا الخط وأهم ذلك ما ذكرناه آنفاً.

وإني لأسأل الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لأمتنا سبيل العز والنصر والتمكين، إنه هو السميع العليم، وأن يجعل هذا العمل خالصاً من أجل وجهه وفي سبيل مرضاته وإعلاء كلمته والحمد لله أولاً وأخيراً، وصلاة وسلاماً على المبعوث بأقوم سبيل، والمخرج لأعظم أمة في التاريخ.

عبدالرحمن عبدالخالق

الكويت في 18 من رمضان المبارك سنة 1406هـ

الموافق 26-5-1986م

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد وآله وبعد:

فقد كنت ألقي خطبة الجمعة في بعض مساجد الكويت، وكـان من عـادتي أن أعيش مـع المصـلين في مشـاكلهم الحاضـرة وأن أبين مـا ينبغي على المسـلم عملـه ليفـوز برضـوان اللـه في الآخـرة، وليحيـا الحيـاة الطيبـة الطاهرة.

وقبل حربنـا الأخـيرة مـع اليهـود في عـام 1967 وقفت في الجمعـة الـتي سبقت بدء الحرب مباشرة، وقلت للناس: لا شك أن الجميع إلا ما قـل من الناس اليوم -في بلاد العرب- ينتظر للعرب نصراً مؤزراً، وذهاباً لليهـود في البحر، ولا شك أن هذا، أمنية كل مسـلم، ولكن أحب أن أقـول إن المطلـع البصير على أحوالنا، وأحوال أعدائنا يجزم بأننا لن ننتصر!! وشده النـاس!! وحملقوا!!

فقلت إن لله سنناً في الأرض لا تتغير، ولا تتبـدل. ومن درس هـذه السـنن وعرفها علم يقيناً أن النصر في هذه المعركة سـيكون من نصـيب أعـدائنا. وإليكم بياناً لبعض الأسباب الـتي من أجلهـا نهـزم ومن أجلهـا أيضـاً ينتصـر عدونا.

إننا ندخل هذه الحرب بكل تفرقنا، وشتاتنا، وتناقضاتنا، -وقد كان هذا جليـاً قبل المعركة بأيام- ولا يمكن أن يكون نتيجـة الفرقـة والشـتات نصـر لأن هذا يخالف سنة الله في أرضه وعدونا يدخل وقد رص صـفوفه، وألـف بين فصائله، وهذا ينتج قوة وعزماً.

إننا ندخل المعركة وليس لجنودنا عقيـدة دافعـة، ولا هـدف سـام إلا مجـرد الفخر والظفر والكلمة الجوفاء (العزة للعرب) هذه عقيدة تـذوب إذا قابـل جنودنا أي (سخونة) من رصاص الأعـداء. وعـدونا يـدخل بعقيـدة (الشـعب المختار) الذي خلقه الله ليسود ويعلو وأنه لا بد لـه من ذلـك، وأن يسـتعيد مجده وتراثه وتراث آبائه الذين وعدهم الله هذه الأرض. وهذه العقيدة -مع ضلالها- أقوى من عقيدة جنودنا.

إننـا نـدخل المعركـة مـع مـذيعين قـد عودونـا أنهم يكـذبون وينـافقون ويخـادعون، ويقولـون مـا لا يفعلـون!! فلمـاذا لا يكـون تضـخيمهم لقـوة أنفسهم تغريراً بنا، وما قالوه من ضعف عدونا كـذباً علينـا! لمـاذا نصـدقهم الآن وقد بلونا الكذب عليهم مراراً.

كيف ننتصر يا قوم وضباطنا يستعدون لليلة ساهرة ترقص فيها الراقصات، وتشـرب فيهـا الخمـور فرحـاً بالنصـر المحقـق لا محالـة!! والعـدو على الأبواب!!

ثم قلت: أنا أعتقد أنه وإن كان هناك نصر فقد تغـيرت سـنن اللـه -وهي لا تتغير- أو أن عقلي قد ذهب - وما أظنه كذلك -أو أنها فتنة عظيمـة- نسـأل الله منها العصمة.

وإن هزمنا -وهذا هو المنتظر- ولا حول ولا قوة إلا بالله - فما هـو إلا نتيجـة حتمية لمقدمات نسير فيها. وخاتمة لطريق نسعى فيه سعياً حثيثاً..

وفي يوم الأثنين -أي بعد يومين من الخطبة- قامت المعركة وتسمر الناس حول المذياع، وسهروا الليالي الأولى حتى يسمعوا دخول الجيوش العربيـة (تل أبيب). وقال الزوجة التي تعبت من السـهر لزوجهـا الـذي يحيـا بجـوار المـذياع بكـل أحاسيسـه وعواطفـه:- "إذا دخـل العـرب (تـل أبيب) فأيقظني!".

وكنت فيمن سهر -للأسف- وعقلي يقـول لي: (لا نصـر ولا مخالفـة لسـنن الله) وعاطفتي تشدني وتقول لي: (انتظر فقد تتبـدل السـنن، وقـد تكـون مخطئاً في تقديراتك).

ولاحت أمارات الهزيمة يوم الأربعاء، ثم تتـابعت حـتى ظهـرت للعيـان يـوم الخميس ثم انجلت صبيحة الجمعة لكل ذي عينين، ولكن الدهماء والعامـة -وما أكثرهم- أبت أن تصدق وقالت هي خطة!! ولا بد بعدها من كرة!!

وجاء يوم الجمعة ولم أحضر خطبة! وماذا عساي أن أقول أكـثر ممـا قلت في الخطبـة السـابقة! ومـاذا أقـول! والهزيمـة الشرسـة تحطم قلـبي!! والضياع البعيد يلف أمتي!! وعلى القلوب أقفالها، وعلى العيـون غشـاوة!! وفي الأسماع أثقال لا ينفذ الكلام بين طياتها!!

ووقفت أمام الناس لأخطب لهم فحمـدت اللـه، وأثـنيت عليـه. ثم قلت مـا معناه:

أيهـا النـاس لقـد حـدثتكم -في الخطبـة السـابقة أننـا لن ننتصـر في هـذه المعركة- ولم أكن متنبئاً بغيب، فلا يعلم الغيب إلا الله!! ولست عميلاً لأحد إلا للإسـلام، وإنمـا هـو القـرآن فيـه الهدايـة، ومن قـرأه قـراءة الفـاحص المدقق فإنه حتماً سيعرف ما عرفت!!

مضت هذه الحقبة، وظننت أن الناس بعد الهزيمة الماحقة التي لا مثيل لها في تـاريخ الأمم قـديماً وحـديثاً -اللهم إلا أن يجتـاح جيش الإيمـان جيش الكفـر!!- سـيرجعون إلى اللـه، وأنهم قـد عرفـوا أخطـاءهم، وأن الأمـة ستباشر فوراً تصحيح الأخطاء، وتقويم المعـوج - وكـان ظـني هـذا سـاذجاً وسطحياً إذ قامت أبـواق الشـر أولاً من علمـاء الـدين! وخطبـاء المسـاجد لتقول: وماذا في الهزيمة! لقد هـزم الرسـول في أحـد!! وهزيمتنـا هزيمـة جزئية كهزيمته {ولا تهنوا، ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}!.

وتملكني الغضب، وأخذت أنظر في إشفاق وحنين لهذه الأمة. الـتي يكـذب عليها ناصحوها. أو من فرض فيهم أن يكونوا ناصحيها.

فسرت في سلسلة طويلة من الخطب لأبين فيها أن هزيمتنا ليست نكسة بعدها نسترد قوتنا ونحارب. وإنما هي هزيمة محتمـة لطريـق نـدفع للسـير فيه. ولا يمكن أن يكون هناك نصر إلا بأخذ أسـبابه. وشـرعت في سلسـلة ثانية أبين هذه الأسباب.

وماذا تصنع خطب كهذه في مساجد يحضرها غثاء من المسلمين وقليل من المصلين الحقيقيين!!

وظننت أيضاً أننا سنعرف الصديق الحقيقي -من دول العالم- والعدو في ثياب الصديق بعد أن كشف الغطاء، وظهر المكتوم. ولكن كنت أيضاً ساذج الظن، لأن الضلال البعيد الذي تعيش فيه الأمة يحرمها الرؤية الصحيحة وإن ظهرت الشمس.

وبعد أن كادت الأمة أن تفيق فتكشف الكاذبين، وتعلم المنافقين الخادعين!!

وإذا بها تنام مرة ثانية على هدهدة الغشاشين الذين باتوا يفتلون في غاربها ويؤملونها في النصر القريب!! وصرخت على منبري الصغير في زاوية من زوايا عالمنا العربي الإسلامي. فوصلت بعض الأسماع فوعت والحمد لله وصرح غيري ممن عرف الحق فأسمع من كتب لهم الهداية، ولكن سواد الأمة ما زال يعيش في حيرة وضلال: لماذا هزمنا؟! وما طريق النصر!!؟

والكل من أمتنا المبتلاة يفتي ويجيب!! وكل العرب مفتون وفقهاء وسياسيون وخطباء!! وقليل من يعرف الطريق ويتبين الصواب!!

واليوم وقد مضت خمس سنوات ونصف ما زال السؤال قائماً! وما زال الجواب غائباً!! وما زالت الهزيمة واقعة وما زالت تطرح الحلول الهزيلة التي لا تؤدي إلا إلى الهزائم المكررة.

وأظن بل أعتقد وأؤمن أن ما أقدمه اليوم هو الحل -إن شاء الله- لبعث أمة طال نومها. ولإحياء جيل -تتبعه أجيال- وقد أذلته الهزيمة وأماته الهوان {وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب}.

اللهم فاجعل هذا خالصاً لوجهك. واهد قومي إلى الأخذ بأسباب قوتهم ومنعتهم حتى تعزهم كما أعززت أسلافهم، إنك أنت السميع العليم.

عبدالرحمن عبدالخالق

الكويت: المحرم لعام 1393

لمن أكتب هذه الرسالة؟

أكتبها أولاً: للمؤمنين المخلصين الذين يعيشون في هذه الحقبة العصيبة من حياة أمة الإسلام. فأرض المسلمين مغتصبة، وكرامتهم في الرغام، وحكومة الإسلام -التي تجمع المسلمين تحت لواء واحد، فتنافح عن عقيدتهم، وتخلص مستضعفيهم الذين يستذلون في كل مكان، وتجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى- غائبة، وثرواتهم نهباً لأعدائهم، وأموالهم ومقدراتهم مضيعة. وأعداؤهم يهددون كل شبر من أرضهم حتى مثوى رسولهم صلى الله عليه وسلم. أكتبها مبيناً طريق الخلاص وخطة العمل.

ثانياً: للمسـلمين الـذين يقـدرون وضـع أمتهم، ويريـدون عزتهـا، ونصـرتها، ولكنهم يلبسون غير الإسلام لباساً ظنـاً منهم أنـه واصـل بهم طريـق العـز والرفعة، وهو غير ذلك. مبيناً الطريق السوي المستقيم.

ولا أكتب هـذه الرسـالة للغـافلين الضـالين، الـذين لا يهمهم إلا أن يملأوا بطونهم، ويحيوا أي حياة رخيصة ولو في ظل أعدائهم، فهؤلاء لن يستفيدوا من كتابي شيئاً بل قد يبعث على سخريتهم واستهزائهم منه.

الباب الأول

منطلق أمتنا للنصر

1- هـذا البـاب هـو بمثابـة المقدمـة لموضـوع هـذا الكتـاب، والمسـلمون المؤمنون بعقيدة الإسلام لا يخفى عليهم المنطلق الذي يبدأون منـه، ولكن تعوزهم الرؤية الواضحة لـه، ولكن أغلب المسـلمين الـذين ورثـوا الإسـلام فقط ولم تتحرك قلوبهم بالإيمان به لا يعلمون منطلقهم إلى النصـر وبهـذا تاهوا في خضم العقائد الزائفة التي زينها لهم أعـداؤهم. ولـذلك فـإن هـذه المقدمة من أجل أولئك الذين ضلوا بداية الطريق. ولن أستقصـي بـراهين هذا الأمـر والشـبهات الـتي تـرد عليـه، ولكـني سـأكتفي بـالعرض المـدعم بالأدلة. دون إغراق في التفصيلات.

2- السؤال الـذي يطـرح نفسـه -في هـذه المقدمـة- مـا هويتنـا؟ هـل نحن مسلمون فقط؟ أم عـرب فقـط؟ أم نحن مسـلمون عـرب؟ أم نحن أهـل أوطان متفرقة، ولكل وطن شعبه الذي يجب أن يعيش له ويعمل من أجله ولصالحه أولاً؟ أم نحن أهل مذاهب وعقائد غير عقائـد الإسـلام؟ وبالإجابـة على هذا السؤال نستطيع تحديد موقفنا، وبالتالي معرفة الذي يجب علينا.

3- أما كوننا عرباً فنعم نحن عرب ولكن العروبة لا تعطينا بذاتها عقيدة عن الحياة، ولا نظامـاً لهـا، ومـا خلفتـه الجاهليـة لا يعـدو أن يكـون ضـروباً من الشعر والنثر والخطابة في أغراض تافهـة محـدودة وتاريخـاً مليئـاً بالفرقـة والشتات مع بعض الأخلاق الحميدة التي تطغى عليها أضـدادها من القـبيح، ولقد جربنا أن ندخل حروباً -قديماً وحديثاً- باسـم العروبـة فقـط فبؤنـا في جميعها بالخيبة أمام القومية التركية والقومية اليهودية، والقومية الإيرانيــة، والقوميات الأوروبية، وأسباب هزيمة القومية العربية في كل حروبها كثيرة منها:

أ- أن الأصول لمن يتكلم العربية الآن مختلفة. فالقاطنون في البلاد العربية الآن منهم القبط (أهل مصـر قبـل الإسـلام)، والـبربر، والأكـراد، والزنـوج، والإيرانيون، والآشوريون، والبابليون، وبقايا الصـليبيين، والـترك، والمغـول، ومن هؤلاء من يحن لقوميته القديمة، وخاصة بعد بعث الدعوة إلى القومية العربية، وهذه الأصول المختلفة لا شك أنها تجعل أهواءنـا ورغباتنـا وآمالنـا مشتتة متفرقة.

ب- الناطقون بالعربية الآن يتبعون ديانات مختلفة منها: الإسلام والنصرانية واليهودية وغـير ذلـك، ولا شـك أن جـل هـؤلاء ولاؤه لدينـه أكـبر من ولائـه لعروبته، وإذا قرأنا التـاريخ علمنـا أن النصـارى العـرب فرحـوا بالاسـتعمار ورحبوا به، وقاتلوا في صفوفه، وأن بعض اليهود العرب هربوا أموالهم إلى دولتهم في فلسطين، وهاجروا إليهـا، وحـاربوا في صـفوف أبنـاء قـوميتهم ودينهم ضد أبناء أوطانهم ولسانهم.

ج- القوميـة العربيـة لا تعطي أبناءهـا عقيـدة يعيشـون لهـا، ويموتـون في سبيلها وإذا جردت عن الإسلام فليس لها تاريخ مشرف يبنى عليـه، ويـدفع أصحابه إلى احتذائه.

د- القومية العربية بالإسلام محتوى وعقيدة تكون أمراً ذا بال، ودعـوة ذات كيان، ولكنها مع ذلك تحمل التناقض وبالتالي الخيبة.

التناقض لأن شعار العروبة أصغر من الإسلام فلا شك أن العـرب هم مـادة الإسـلام وحـاملوا لوائـه، والمبشـرون بـه قـديماً وحـديثاً، ولكنهم بالعروبـة وحدها لم يكونوا شيئاً يذكر. فلما جاء الإسلام جعل منهم أمة واحدة، وهذه أولى درجات المجد والعـز ثم وضـع لهم ومن آمن معهم العقيـدة الكاملـة، والتشـريع الكامـل، ودفعهم إلى دعـوة النـاس جميعـاً للإيمـان بـدعوتهم، وكـانت هـذه هي الدرجـة الثانيـة في سـبيل عـزهم ومجـدهم، وفي سـبيل تحقيق ذلك أمرهم بالعلم والقوة، وكل ما يؤهلهم للسيادة، ففعلوا، وبـذلك صـاغهم الإسـلام صـياغة جديـدة، وجعلهم على مسـتوى المسـؤولية الـتي كلفهم بها، فلما رجعوا إلى شعار العروبة مرة ثانية -وهـذا بـدفع أعـدائهم- وجدوا أنهم لا شيء مطلقاً، فكيف نقدم بعد هذا شعار العروبة على شـعار الإسلام؟!!

إذن فنحن مسـلمون أولاً لأنـه بالإسـلام كـان عزنـا ومجـدنا، وعـرب ثانيـاً، ويشرفنا ذلك لأن الله اختارنا لرسالته الخاتمة التي يؤهلنا بها لنكـون هـداة للعالمين جميعـاً، ولم يكـرم شـعباً كمـا كرمنـا، نحن مسـلمون عـرب هـذه هويتنا، وليست العروبة عندنا عصبية نتعصب لها، فنظلم بهـا المسـلم غـير العـربي أو نقـدم بهـا الكـافر العـربي على إخواننـا في الـدين مهمـا كـانت جنسيتهم ولونهم.

4- أما كوننا أهل أوطان لا أهل وطن واحد فإنما كـان ذلـك بفعـل أعـدائنا، وتمزيقهم لأرض أمتنا التي قامت عليهـا. ومـا هـذه الحـواجز والسـدود بين دولنا العربية، إلا أثر سيئ من آثار أعدائنا، وليس هناك مسلم حق يتعصـب لهذه التجزئة، ويراها نهاية لمطاف أمته!! ولقد أثبت هذا التمزيق أنه أنفــع سلاح في يد الأعداء، فلم تستطع ولن تستطيع دولة واحـد منـا أن تـرد عن نفسها أي عدو من الشرق أو الغرب، والوقائع شاهدة بما أقول.

وإذا كنا نستطيع أن نحل دعوة الإسلام مكان الدعوة إلى القوميـة العربيـة بجهـد قليـل نسـبياً، فإننـا لن نسـتطيع أن نقضـي على الـدعوة للتعصـب الوطـني المخـالف للإسـلام إلا بعـد جهـد طويـل، وجهـاد شـاق، وذلـك أن للتعصب الوطني الآن دولاً وحكومـات، وأعلامـاً، وأناشـيد وطنيـة، وشـعوباً كاملة ترى في هذه التجزئة نفعها المادي، ومراكزها المرموقة، ولـذلك فلا بد أن يسبق ظهور الوطن الواحد دعوة صادقة إلى الإخوة والمحبة، ووضع أسس ثابتة تحفظ لكل ذي حق حقه، وإلا كان الإندماج نوعاً من الاستغلال، والسيطرة، وبذلك يقع الظلم، وتتضرر دعوة الإسلام.

5- ولسنا، ولا ينبغي أن نكون أهل عقائد، ومذاهب، وأحزاب تخـالف دعـوة الإسلام فإن هذا إنسلاخ من الإيمان إلى الكفر وانسلاخ من العروبـة أيضـاً، فليس العربي إلا مسلماً، وكل عربي -غير مسلم- فإنمـا هـو عـربي لسـاناً فقط وأما جنساً فلا، فدعوة الإسلام صوت العـرب جميعـاً تحت لوائهـا ولم يبق عربي واحد في صدر الإسلام غير مسلم إلا ما ذكـر عن نصـارى تغلب من العرب، وقد فرض عمر بن الخطاب عليهم الجزية ولا شـك أنهم آمنـوا بعد ذلك ودخلوا دين الله أفواجاً بعد ما رأوا آيات صدق الإسلام. والدعوات

الجديدة التي غرسها الأعداء في بلادنا هي تمزيق جديد لوحدة الأمة، ولا بد لها من الزوال إن أردنا العز والنصر، وشـعار العروبـة الـذي تلبسـه أحيانـاً شعار زائف لأنه سريعاً ما يظهر أنهم يعملـون ضـد العروبـة وضـد الإسـلام لمصلحة أعداء هذه الأمة.

6- وبهذا تتضح الآن هوية الأمة ومنطلقها نحـو النصـر إنـه الإسـلام -الأرض الصلبة التي نقف عليها- ثم العروبة - وهذا تشريف يحمل في طياته تكليفاً عظيماً لأن العرب اختارهم الله لحمل هذه الرسـالة، فلا انفكـاك لهم عنهـا إلا إلى الكفر والتمزق والضياع.

والأوطان المختلفة وضع شاذ يخالف طبيعة الأمة الواحدة ولا بـد أن يعمـل الجميع -مخلصين- القادة والشعوب للقضـاء على هـذا الشـذوذ بمـا يحقـق العدل والخير ويحفظ لكـل ذي حـق حقـه ويجعـل أمـة الإسـلام ذات وطن واحد.

7- وأعتقد أنني بهذا قد مهدت الطريق أمام وضـع الأسـس الـتي نسـتطيع بهـا أن نبعث أمتنـا من جديـد. وذلـك بعـد أن عرفنـا المنطلـق نحـو النصـر القريب بإذن الله سبحانه وتعالى.

الباب الثاني

أسباب انتصار الأمة الإسلامية قديماً

1- علمنا في الباب الأول أن الإسلام جعـل من العـرب، ومن انضـوى تحت لوائهم أمة، وأنه هو الذي دفعهم إلى العز والمجـد الـذي حققـوه في وقت قصـير من الزمـان، ولا بـد أن نسـأل أنفسـنا هـذا السـؤال: كيـف انتصـر المسـلمون في صـدر الإسـلام؟ في معاركـه الشـاملة حيث كـانت الأمـة جميعها معبأة للحرب، وفي معاركـه الجزئيـة -كانتصـارهم على الصـليبيين- حيث لم تكن التعبئة عامة شاملة.

2- وللجواب على هذا السؤال أقول ليس هناك إلا سببان رئيسيان للنصـر. ثم أسباب ثانوية أخرى وهي نتائج للسببين الرئيسـيين:- أمـا السـبب الأول فهو أنه قام عهد بين من آمنوا برسالة الإسـلام وبين اللـه سـبحانه وتعـالى يقوم المسلمون -وفاءً به- ببيع أنفسهم وأموالهم للـه عـز وجـل، وأن اللـه تبارك وتعالى قد وعد في مقابل ذلك بالنصـر والتمكين في الـدنيا، والجنـة في الآخرة. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا هـل أدلكم على تجـارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل اللـه بـأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنـات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عـدن ذلـك الفـوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشـر المؤمـنين} (الصـف: 10-13).

ولقد خاض صدر الإسلام غمار هذه التجارة، وربحوا ثمرتهـا العظيمـة فلقـد باعوا أموالهم وأنفسهم لله عز وجل، ولقد وفى الله سبحانه وتعالى وعـده معهم فأتاهم النصر القريب، ولا شك أنه قد آواهم الآن في جنته.

3- لقد كان هذا العقد والعهد هـو صـلب عقيـدة الإسـلام وغايتهـا وثمرتهـا. فلئن كان الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم قـد دعـا النـاس في مكـة إلى الإيمان بالله وتوحيده فـإن ثمـرة هـذا هـو بـذل النفس والمـال في سـبيل الدعوة، بل إنه مجرد قبولها إبان دعوة الرسول كان معناه تعـريض النفس والمال للخطر، ولقد كان هذا مفهوماً عند كل من دعاهم الرسول للإسلام. ولذلك قال وفد بني شيبان عندما دعـاهم الرسـول للإسـلام في الموسـم: "لقد جئتنا يا هذا بحرب الملوك، ولا طاقة لنا بذلك!!".

وبيعة العقبة في حقيقتها كانت قبولاً بهذا العهد مع الله. فالبيعة الـتزام من الأنصار ببذل المال والنفس دفاعاً عن دعوة الإسلام ووعداً من الله بالجنة في مقابل ذلك. وكذلك بيعة الرضوان كانت على المـوت في سـبيل اللـه، ليس في المعركة المنتظرة والثأر لعثمان بن عفـان الـذي أشـيع أنـه قتـل بمكة وإنما للدوام والاستمرار ولذلك ناداهم الرسول بهذه البيعة في غزوة حنين [يا أصحاب الشجرة!!] عندما فر المسلمون في أول المعركة.

ولقد أخبر الله أنه أنفذ هذا العقد وأبرمه، وأمضاه، عنـدما قـال عـز وجـل: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأمـوالهم بـأن لهم الجنـة يقـاتلون في سـبيل اللـه فيقتلـون ويقتلـون وعـداً عليـه حقـاً في التـوراة والإنجيـل والقرآن ومن أوفى بعهده من اللـه، فاستبشـروا بـبيعكم الـذي بـايعتم بـه، وذلك هو الفوز العظيم} (التوبة:111) وهذا يدل على أن من لم يدخل في هذا العقد فليس بمؤمن لأنه قـال {من المؤمـنين} بــ "أل" الـتي تسـتنفذ هذا الجنس.

4- ولك أن تنظر بعد أي عقيدة دافعة محركة للعمل والبنـاء هـذه العقيـدة التي يشعر المرء فيها أن طاقاته جميعـاً مسـخرة نحـو هـدف واحـد وغايـة واحدة!! إنها العقيدة التي تجعل المرء مسئولاً عن كـل فلس يملكـه وكـل قطرة دم يريقها وانظر توضيحاً لهذه العقيدة في كلام الله عز وجل: {قـل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العـالمين لا شـريك لـه وبـذلك أمرت وأنا من المسلمين} (الأنعام:162،163).

5- وبهذا نخلص إلى أن السبب الأول في انتصار المسلمين قـديماً وحـديثاً هو إيجاد الفرد المستعد لأن يبذل دمه وماله في سبيل غايته. وليس هنـاك عقيدة في الأرض أقوى من هذا، ولا فرد في الأرض أقـوى من هـذا لفـرد، الذي يؤمن بهذه العقيدة.

6- وأما السبب الثاني: فهو ما يأتي:

لقد وجد الفرد المؤمن ذو العقيدة الدافعة القوية وهذا عمـل عظيم جـداً!! ولكن هذا الفرد وحده لا يصنع شـيئاً ذا بـال في تغيـير مصـير أمـة بـل أمم ولذلك كانت الخطوة الثانية هي تآخي هـؤلاء الأفـراد في وحـدة جامعـة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً قبـل ذلـك. وحـدة متماسـكة يفـدي فيهـا الأخ أخـاه بنفسه وماله.

إذن لقد كان السـبب الثـاني هـو الوحـدة الجامعـة والرابطـة القويـة الـتي ربطت بين المسلمين جميعاً وبهذا وجدت الأمة.

وهذه الوحدة لم تكن بنت يوم وليلة، ولا وليدة خطبة حماسية وإنما كـانت وحدة وأخـوة مبنيـة على قواعـد ثابتـة من صـنع اللـه تبـارك وتعـالى، قـال تعالى: {وألف بين قلـوبهم، لـو أنفقت مـا في الأرض جميعـاً مـا ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم} (الأنفال:63) وهذه القواعـد معلومة مدونة: وهي باختصار عقيدة كاملة واحـدة ونظـام تشـريعي كامـل موحد، ونظام أخلاقي اجتمـاعي فريـد يقـدم العفـو على المقاصـة، ويـأمر بالفضل والإحسان قبل المماثلة في العقوبـة ويجعـل الـذي يقابـل السـيئة بالحسـنة في أعلى درجـات النـاس. والـذي يـؤثر غـيره على نفسـه أعظم شأناً، وأعلى مكاناً من الـذي يقـدم نفسـه عليهم، ثم هـو نظـام كامـل في رفض الفرقة والشتات وتحريم كل ألوان الخلاف: الصغير منها والكبير.

7- وماذا تنتظر بعد من أمة تكونت على هذا النحو: عقيدة دافعـة متأججـة، وأخوة غامرة حانية. إن أمة هـذه حالهـا لا تقـف أمامهـا سـدود ولا يعوزهـا مفقود، ولا ينتصر عليها أحـد. وقـد كـان!! لقـد سـاحت هـذه الأمـة بمجـرد تكونها على النحـو السـابق في الأرض شـرقاً وغربـاً، وهي تتوقـد حماسـة، وتمتلئ رقة وعطفاً ورحمة، تشتد فتكون نـاراً محرقـة، وتلين فتكـون مـاء عذباً زلالاً، وتصـفو وتشـف وتكـون نـوراً وهدايـة ورحمـة، ولـذلك لم يقـف أمامها سد من السدود، ولا استطاع ملاقاتها أمـة من الأمم، وذلـك بـالرغم من قلة العدد والعدة.

8- لا شك أنه كانت هناك أسباب أخرى لانتصار المسـلمين كتعلمهم فنـون أعدائهم في القتال، ولكن هذا السبب وغـيره من الأسـباب الصـحيحة إنمـا كان نتيجة للسببين السابقين، وأكرر القول أن الأمة التي تتكون على ذلـك النحو لا يعجزها شيء مما قدر للبشر أن يبلغـوه: لا يعوزهـا علم، ولا قـوة، ولا سـلاح، ولا خـبرة لأنهـا بـذاتها سـتوجد ذلـك وفي أسـرع وقت ممكن، وتفعل العصا في يد أحدهم ما لا يفعل السيف في يد غيرهم.

9- ولا أنكر بعد أن قوة الله وإمداده كـانت فـوق ذلـك، ولكن هـل العقيـدة الصحيحة في القلب المؤمن إلا قـوة من قـوة اللـه لا تقهـر ولا تغلب، هـل العقيدة السليمة إلا لقاء وموالاة بين البشـر والملائكـة والشـمس والأرض. لقـد نـزلت الملائكـة في حـروب المسـلمين لأن هنـاك التقـاء على عقيـدة واحدة؛ قال تعـالى: {الـذين يحملـون العـرش ومن حوله يسـبحون بحمـد ربهم ويؤمنـون بـه ويسـتغفرون للـذين آمنـوا} لقـد اسـتغفروا لارتبـاطهم بالمؤمنين برابطة الإيمان، والحب في الله، والشمس وقفت للعبد المؤمن يوشع لأنها مأمورة وهو مأمور، وقد وقع لكثير من الصـحابة في فتوحـاتهم شـيء يشـبه هـذا، وسـيقع هـذا مـع المؤمـنين عنـدما يفتحـون فلسـطين ويستردونها من أيدي اليهود: [لتقاتلن اليهود حتى يقول الشجر والحجر: يـا مسلم، يا عبدالله، هذا يهودي ورائي فاقتلـه]، ومـا زال كثـير من هـذا يقـع لكثير من المؤمنين في حروبهم.

إن العقيـدة في اللـه قـوة لا تعـدلها قـوة لأنهـا تسـتمد قوتهـا من خـالق السموات والأرض سبحانه وتعالى.

10- وأرجو أن أكون بهذا قـد بينت الأسـباب الحقيقيـة لانتصـار المسـلمين في صدر الإسـلام وبعـده، والـذي يريـد تفصـيلاً لهـذا فليقـرأ التـاريخ الـذي

سطرته أيدي المسلمين، أو الكفـار المنصـفين وسـيرى مصـداق مـا قلت، ولتقرأ أولاً كتاب الله ولننظر أي قوة غرسها هذا الكتاب في صدور أتباعـه، وأي نظام وضع لهم، وأي أخوة ومحبة سجلها وكتبها لتلك الطائفـة الطيبـة التي عاشت والقرآن ينزل.

الباب الثالث

أسباب الهزيمة في الوقت الحاضر

1- سنعجب جداً عندما نرى أن هذا الغثاء من المسلمين، الذين ضربوا أبشع الأمثلة في الهزيمة، والخزي والعار، هم من سلالة أولئك الفاتحين، وهم وارثوا هذا التاريخ المجيد المشرف. وهنا يبرز أمامنا هذا السؤال: كيف وصلنا إلى هذا الحال؟ وما هي أسباب هذه الهزيمة؟

2- وللإجابة على هذا السؤال أقول: لقد كانت الهزيمة نتيجة حتمية لنقض سببي النصر، وهذا أمر منطقي، فإن الأمة انتصرت بأسباب، وغياب هذه الأسباب لا شك أنه يؤدي إلى غياب النصر. وباختصار: لقد فقدت الأمة عقيدتها الدافعة، وأخوتها ووحدتها. وهذا ماثل أمامك تماماً، فحب الدنيا وكراهية الموت والبخل بالمال والشح أصبح صفة غالبة على الناس (المسلمين) في زماننا. وليس بين أمة في الأرض (الآن) من التمزق والتشتت ما بين أمتنا -للأسف- فكيف يكتب النصر لأمة هذه حالها: حب للحياة، وبخل ببذل المال، وفرقة وشتات وخلاف.

3- وكل الأسباب التي ستذكر بعد هذين السببين إنما هي نتائج لهذين السببين: فالضعف، والجهل، والتردي الخلقي والجبن كل ذلك كان نتيجة لذهاب العقيدة الدامغة، والأخوة الموحدة الضامة المؤلفة.

4- وحتى يكون هذا الأمر جلياً واضحاً أقول: لقد أدرك أعداء هذه الأمة قديماً سر قوتها، ومنعتها وأنه ذلك العهد الذي بايعت ربها عليه، وأنه ذلك الإخاء البديع والنظام المحكم الذي تآلفت عليه. فجعلت غايتها: أن تفرط هذا النظام أولاً ثم تقطع هذه الصلة بين الله والأمة - ثانياً.. أما لماذا اختارت فرط النظام أولاً ثم بعد ذلك إضعاف العقيدة، فلأن فرط النظام وإذهاب الإخوة أيسر منالاً من إضعاف العقيدة، فالعقيدة تغرس في القلب، وتكتسب ببطء شديد وممارسة طويلة، وأما التفريق فإنه ينبعث سريعاً بقليل من الشرر وقليل من الخلاف.

ألم تر كيف كاد الأنصار من الأوس والخزرج أن يقتتلوا عندما ذكر اليهودي أمامهم شعراً من شعر جاهليتهم وحروبهم في (بعاث) وألم تر كيف كاد المهاجرون والأنصار أن يقتتلوا في إحدى الغزوات على سقاية بعض الماء، وألم تر كيف كادوا أن يقتتلوا أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يخطب طالباً منهم أن يكفوا عنه شر عبدالله بن أبي الذي آذى رسول الله بسبب زوجته، وألم تر كيف تخاصم عمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق يوماً في حياة الرسول حتى أنه غضب وقال: [أما أنتم بتاركي لي صاحبي].

إن الخلاف والشقاق أسرع انتشاراً في النفوس من النار في الحطب، فإن عَزَّ الماء أتت النار على كل شيء، ولذلك يستطيع الفرد الواحد من الأعداء أن يأتي على أمة بأكملها شقاقاً، وتفريقاً وتمزيقاً. وأما العقائد فلا لأن إخراجها من النفوس يحتاج إلى أجيال متطاولة، حتى لو كانت العقيدة باطلة!! فكيف بعقيدة الإسلام القوية الساطعة النيرة!!

وهذا الذي كان من أمر تمزيق الأمة وإذهاب عقيدتها لقد استطاعت قوى الشر أن تبذر بذور الشقاق في الأمة وأن تثمر هذه البذور في أقل من خمس وعشرين سنة من وفاته صلى الله عليه وسلم (أشد ثمارها مرارة) حيث قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه. وهذا ما حذر منه صلى الله عليه وسلم حيث قال بعد أن أرسى قواعد العقيدة: [إن الشيطان يئس أن يعبد بأرضكم هذه! ولكنه قنع بالتحريش بينكم] ويا لها من قناعة شيطانية. لقد علم الشيطان أن العقيدة لن تزول سريعاً وخاصة من الذين تلقوا الوحي غضاً طرياً، وعاينوا الآيات على صدق الرسول عياناً، ولكنه قنع بما يستطيعه -في هذه الأمة- من الشر وهو التحريش بينهم. (ويا له من تحريش!!) بلغ من فظاعة آثاره تلك الحروب الطويلة القاسية التي طحنت كثيراً من أصحابه صلى الله عليه وسلم! والتي تقشعر أبداننا اليوم ونحن نطالعها. والذي سيطالعها بعين الحق والنزاهة وترك التعصب والجهل سيعلم أن هناك يداً خفية كانت تشعل الفتنة من وراء ستار، وتشفي قلوبها الجريحة الحاقدة وهي ترى آثار الدماء التي تخلفها هذه الفتنة.

والقارئ لسيرة اليهودي (عبدالله بن سبأ) الذي ادعى الإسلام بعد مقتل عمر بن الخطاب وحضر المدينة من اليمن سيعلم أن بذور الشر التي غرسها في أهل الحج من المصريين والعراقيين وأهل الشام البعيدين عن دار الخلافة. قد آتت ثمارها بمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه بحجة عجيبة وهي: الغيرة على خلافة الإسلام أن تنحرف وأن تخالف سنة الشيخين أبي بكر وعمر وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولست في هذه الرسالة مؤرخاً ولكني فقط أحب أن أضع يد قومي وأبناء أمتي في وقتنا الحاضر على موطن الداء من علتهم المزمنة (الفرقة) حتى يتبينوا طريق خلاصهم. ولقائل أن يقول: لقد خالف عثمان شيئاً من سنة سابقيه. وأقول مهما كانت هذه المخالفة فإن عقوبتها لا يجوز بتاتاً أن تكون قتلاً لهذا الخليفة الراشد رضي الله عنه، ويا له من قتل غادر يدعي فيها المجرم أنه بذلك يحافظ على نظافة الخلافة!!

وإن تعجب من شيء فليكن عجبك أشد من أستاذ للتاريخ بإحدى جامعاتنا يشكك في وجود رجل اسمه (عبدالله بن سبأ) يزعم أن هذه شخصية أسطورية لا يمكن لرجل أن يصنع كصنيعه، ولو علم هذا المسكين الذي يدرس لأبنائنا التاريخ الإسلامي أن أمماً انهارت بكاملها بفعل جاسوس واحد لصدق ما كتب عن عبدالله بن سبأ، ولو قرأ أيضاً عن تنظيمات اليهود السرية قديماً وحديثاً لعرف كيف يستطيع رجل واحد أن يهدم أمة بكاملها. ولو قرأ شيئاً صالحاً عن النفس البشرية وكيف أن الشقاق أسرع إليها من سرعة النار إلى الهشيم لعلم أي محنة من الممكن أن تقع فيها أمة إذا بذرت بينها بذور صغيرة من الشحناء والبغضاء.

5- ولم يقف أعداء الأمة عند حد في تمزيقها، بل داوموا هذا التمزيق والتشتيت منذ ذلك الوقت وحتى زماننا حتى أصبح للتمزيق قواعد وأصول يكاد الدهر أن يزول ولا تزول. أليس مما يقتل القلب كمداً وحسرة أن يطلع المسلم على مقدار الهوة السحيقة بين مذاهب المسلمين العقدية حيث أن لكل مذهب أصوله وأركانه وفلسفته وتاريخه وبنيانه الذي ينهدم

الزمان ولا ينهدم. وأليس مما يـذهب النفس حسـرة وراء حسـرة أن نـرى لكل مذهب من المذاهب الفقهية الفرعية عند أهل السـنة وحـدهم أصـوله الخاصة التي ينبني عليها مئـات بـل آلاف الفرعيـات الـتي تخـالف مـا عنـد الآخرين، وسيقول قائل جاهل - إن الخلاف في الفروع لا يضـر، ولـو اطلـع لعلم أن آثـار هـذا الخلاف الفـرعي الفقهي اليسـير قـد أضـحت تشـريعات مستقلة ومناهج منفصلة يكاد بها أن يكون كل مذهب شريعة مستقلة.

ولقد كان من آثار ذلك تـرك العمـل بالشـريعة جملـة وتفصـيلاً ثم اسـتيراد الشرائع الكافرة، ثم ضياع العقيـدة الإسـلامية بالتـالي. وإنـني بهـذا البيـان القصير لأطوي الحوادث طياً، وأجملها إجمـالاً وسـيكون للتفصـيل في هـذا الأمر مجال آخر -إن شاء الله تعـالى- والمهم الآن في هـذا المقـام هـو أن نفتح الأعين على مقدار هـذا الركـام من الخلاف الـذي لم يـترك اثـنين من أمتنا على قلب رجل واحد.

6- ثم جاء بعد هذا كله العقائـد (الأيـدلوجيات) الوافـدة من الأعـداء فنقلت الأمة أو كادت عن عقيدتها، وقطعتها عن تاريخها، ثم أعملت فيها التمزيــق والتشتيت، حتى انقسم أبناء الرجل الواحد، ولعن بعضـهم بعضـاً بـل وقتـل بعضهم بعضاً، ناهيك عن أبناء البلد الواحد والوطن الواحـد. وبـذلك أصـبحنا مضرب المثل في التفرق والتمزق والضياع.

7- وبهذا كانت الهزيمة أو الهزائم المتكررة أثراً لازماً لهذا التفكك والخلاف والتمزق. وهذا سبب ثان رئيسي يضاف إلى السبب الأول الآنف وهـو فقـد العقيدة الواضحة النيرة الواحدة التي توحد الغاية وتجمع الصفوف.

وبهذا نصل إلى السؤال الآتي: كيـف ونحن على هـذا الحـال - نسـتطيع أن نبعث الأمة من جديد؟

وقد خصصت -بمشيئة الله- الباب الآتي للإجابة على هذا السؤال..

الباب الرابع

الطريق إلى بعث الأمة الإسلامية

لا نستطيع أن نتصور أمة صالحة كاملة إلا بتصور جماعة لها عقيـدة واحـدة ومنهج واحد في الحيـاة، وبهـذا تتحـدد مقومـات الأمـة على النحـو التـالي: الجماعة، العقيدة (الإيمان)، والمنهج (التشريع).

أما الأفراد المسلمون فهم كثير والحمـد للـه فهم يعـدون بمئـات الملايين. ولكن حالهم فكما عرفت في الفصـلين السـابقين، وأمـا العقيـدة الواحـدة فموجودة باقية ولكنها تحتاج إلى أمرين:

الأمر الأول: تخليصها ممـا علـق بهـا عـبر القـرون من الانحـراف والتأويـل السخيف المشوه لحقيقتها، والخرافة.

الأمر الثاني: نقلها من بين الآيات والأحاديث وبطون الكتب إلى الصدور.

وأما المنهج الواحد فموجود أيضاً باق إلى يوم القيامة ولكنه يحتاج إلى أمرين أيضاً:-

الأمر الأول: تنقية هذا المنهج من البدع والانحراف، والتأويل الباطل، والغلو والتفريط.

الأمر الثاني: وضع هذا المنهج موضع التنفيذ.

وبهذا سيتحدد العمل في ثلاث دوائر أساسية ولكنه سيتفرع إلى شعب كثيرة:

الدائرة الأولى: تحديد العقيدة الواحدة وتصفيتها من الشوائب.

الدائرة الثانية: تخليص الشريعة الإسلامية وتنقيتها من البدع والغلو والتفريط.

الدائرة الثالثة: تهيئة الفرد المسلم ليقبل العقيدة الناصعة الواضحة والشريعة الغراء السمحة الكريمة.

وهذا الكلام فيه إجمال واختصار وهنا ترد هذه الأسئلة:

ما صفات هذه العقيدة الواحدة وكيف نحكم بأن هذا تأويل باطل؟ وهذا حق؟ وما المنهج لتنقيتها وتصفيتها؟ وما صفات الشريعة السمحة وكيف نستطيع أن نجمع المسلمين على كلمة سواء في العمل بالشريعة وقد اختلفت الآراء، والمذاهب والفتاوى؟! وما المنهج والضابط لهذا التميز بين ما هو من صلبها وما هو خارج عنها؟

وما الطريق لوضع هذه العقيدة والشريعة موضع التنفيذ؟؟ وللإجابة على هذه الأسئلة أقسم هذا الموضوع إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول

العقيدة الواحدة (مسائل الإيمان)

1- ليس هناك في الأرض اليوم عقيدة واحدة ناصعة واضحة في عقول أتباعها إلا العقيدة الإسلامية وذلك لأن مصدرها الأول (القرآن الكريم) ما زال موجوداً على النحو الذي نزل عليه والحمد لله {إنا نحن نزلنا الذكر وإن له لحافظون}، ومصدرها الثاني (الحديث الشريف) ما زال محفوظاً والحمد لله مع ما ناله من اختلاطه بالضعيف والموضوع، ومع ذلك فمقدار الاختلاف والتفرق الذي يصل إلى حد التمزيق والشتات حاصل وحادث بين أفراد هذه الأمة، وما دمنا نسعى إلى التوحيد الكامل للأمة فلا بد من انتزاع الخلاف، والقضاء عليه مهما كان صغيراً لا يؤبه له.

2- والمسلمون الذين خلفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أصحاب عقيدة واحدة (في الله، والكون، والجنة، والنار، والملائكة والرسل والقضاء والقدر..الخ). وإنما حصل الخلاف بعد ذلك.

3- ولست هنا مؤرخاً لكيفية الخلاف وتطوره وإنما يهمني أسبابه وطريق القضاء عليه.

4- وقبل أن أشرع في ذلك أود أن أوضح ماهية العقيدة الإسلامية.

أولاً: العقائد قسمان: قسم من صنع الإنسان ونظره وفكره سواء كان في شيء غيبي كالبوذية والوثنية والمجوسية..

أو ما كان في شيء مادي بحت كالشيوعية التي تنادي بنظام للحياة -تراه صالحاً- وتنزل يقينها في صحة هذا النظام وعدالته منزلة الإيمان الغيبي.

ولا شك أن هذا القسم بشقيه خرافة وتحكم وقصور نظر. فالغيب مصدره الله وليس الإنسان. والحكم على نظام للعدل -من وضع البشر- تحكم وقصور فالإنسان دائماً يهدم اليوم ما بناه الأمس من نظريات وقوانين والحياة شاهدة.

والقسم الثاني: عقيدة من تنزيل الله تبارك وتعالى وقد أنزلها على رسله الذين اختارهم لإبلاغها للناس، وهذه حق وصدق ما دمنا قد تحققنا من صدق الواسطة التي بلغتها وهي (الرسول) وهذا القسم يلحقه تحريف الناس وأوهامهم وخرافاتهم وتأويلاتهم الباطلة كما صنع اليهود بعقيدتهم، والنصارى بعقيدتهم، وجهال المسلمين بعقيدتهم.

5- فإذا وضح هذا، وهي أن مسائل الإيمان (العقيدة الإسلامية) وحي من الله تبارك وتعالى، وعلمنا أن هذا الوحي محفوظ مضبوط والحمد لله أولاً وأخيراً، وأنها تخالف عقائد البشر التي صنعوها لأنفسهم، وظنوها حقاً بلا برهان ولا دليل. فإن الخلاف في هذه العقيدة قد نشأ بأسباب أجملها فيما يلي:

أ- قياس أمور الغيب على أمور الحياة المشاهدة.

ب- اعمال العقل في غير مجال عمله.

ج- محاولة تكييف أمور الغيب الآخرة. وأعني بالتكييف إعطاء صورة مماثلة للغيب حسب الصور المشاهدة في الدنيا. (قياس الآخرة على الدنيا).

والحق أن السببين الأخيرين راجعان إلى السبب الأول، وهما من آثاره. فكيف يعمل الإنسان في غير مجاله؟

العقيدة الإسلامية (الإيمان) لا بد لها من العقل والفهم، وهي تبنى على قضايا منطقية كقضايا الحساب الذي لا شك فيه، وذلك عند من يفهم ويدرك ويعي. وحقائقها الأولية تبدأ كما يلي:

1- الإيمان بخالق هذا الكون. وهذا شيء فطري لا يحتاج إلى كبير نظر وتأمل طويل فما على أي إنسان عاقل إلا أن يفكر في نفسه وما حوله ليعلم يقيناً أن هذا الكون ليس فلتة، ولا صدفة، ولا مخلوقاً خلق نفسه، وإنما هو عن تدبير مدبر، وإحكام حكيم. وهذا القدر من الإيمان لا يجوز مطلقاً أن يختلف فيه عاقلان على سطح الأرض وأما (جهال الناس،

ودواب البشر) الذين يخالفون هذه العقيدة الفطرية الساذجة السهلة الميسور الوصول إليها فللكلام معهم مناهج وطرائق أخرى، ومجال غير هذا المجال.

2- الإيمان (بالواسطة) الرسول الذي يختاره هذا الإله لإبلاغ الناس ما يريد ربهم منهم، والشأن الذي خلقهم له، ومبدئهم ونهايتهم. وهذه (الواسطة) الرسول لا بد من وضعه تحت مجال البحث والتدقيق في أمره، واختياره بكل الطرق حتى يثبت يقيناً صدقه فيما بلغه عن ربه جل وعلا. ولا يمكن أن نصل إلى ذلك إلا بإعمال طويل للعقل حيث سنبحث سيرته، ونتعمق في كلامه، ونختبر معجزته وآية صدقه حتى يتبين لنا أمره على الحقيقة إذ مجال الرسالة من الممكن أن ينتحله ويدعيه الكاذبون.

وإلى هنا ينتهي مجال التدقيق والتشريح فيما يقوله الرسول، ويبدأ العقل مرحلة أخرى هي مرحلة الفهم والتطبيق. إنها مرحلة {سمعنا وأطعنا} فإذا أخبر الرسول بالجنة ونعيمها، والنار وأهوالها، وعذاب القبر وعجائبه، فليس أمامنا قياس ولا تشبيه ولا إجراء لسنن الحياة على سنن الآخرة فإن الأمر مختلف. وإذا أخبرنا الرسول عن ربنا تبارك وتعالى وصفاته وكلامه، وضحكه، وفرحه، واستوائه، وغضبه، ورضاه، وحبه لأناس ومقته لآخرين، قلنا {سمعنا وأطعنا} دون إعمال للعقل بالتشبيه والقياس أو بالنفي والتعطيل، أو بالرد والتأويل البعيد السخيف. وإعمال العقل في هذه الأخبار الغيبية قياساً وتشبيهاً، أو نفياً وتعطيلاً، وتأويلاً يجر إلى الكفر وتمزيق العقيدة وبالتالي تشتيت المسلمين وضياعهم.

6- وبهذا يظهر جلياً -إن شاء الله- أن العقيدة التي تجمع المسلمين ولا تفرقهم، وتوحدهم ولا تشتتهم هي عقيدة السلف التي جمع الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة عليها. وعلمهم إياها. وأنه ليس أمامنا خيار في انتحال غيرها، أو فتح المجال لسواها. (وعقيدة السلف) تقوم على الأسس السهلة التي قدمتها آنفاً والتي لا يأباها عقل سليم. وهي الحق من الله تبارك وتعالى لأنه ليس فيها شيء من صنع الإنسان.

7- وأما التأويل الذي حدث في العقيدة بعد فإنما هو محاولة إنسانية في الغيب يجب علينا رده مهما كان مصدره فلسفة يونانية، أو فكراً وثنياً برهمياً، فيحارب عقلية لعلماء سموا أنفسهم بالفلاسفة المسلمين. ويكفينا ويكفي المسلمين تلك العقيدة السهلة السمحة الميسورة القريبة الفهم من الناس جميعاً على اختلاف مستوياتهم.

8- ولا شك أن المسلم سيفهم هذه العقيدة فهماً كاملاً سليماً حكيماً إن هو قرأ كتاب الله القرآن، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان له حظ من فهم لغة العرب، ولم يتدنس بدنس المحاولات البشرية لفهم الغيب دون اللجوء إلى الرسل وهذه المحاولات البشرية هي ما سميت بالفلسفة.، وقد سميتها دنساً لأنها تشوه الذهن والفطرة السليمة بكثرة ما فيها من التناقضات والأغاليط والاختلاف والقضايا التي تعد مسلمات وليست هي كذلك. وأمثال هؤلاء الذين تدنسوا -باعتناق هذه الثقافات- لا بمجرد قراءتها والإطلاع عليها - يصعب عليهم فهم عقيدة الإسلام السهلة

الميسورة. إلا بكثير من العناء، والمجاهدة، والتخلص مما علق بالــذهن من هذا الركام.

9- ولا شك أن إبراز هذه العقيدة وإفرادها للقراءة والبحث بأسلوب العصر سيعد عملاً جليلاً، وهذا هو أول عمل فكري يجب أن تتوجه الأقلام بالكتابــة فيه (تصنيف العقيدة الإسلامية كاملة في مصنفات بلغة العصـر، على منهج السـلف الصـالح الـذي يجمـع ولا يفـرق، والـذي هـو منهج العلم والحكمـة والسلامة من كل العيوب والنقص).

وكل منهج غير هذا المنهج في كتابة العقيـدة فإنـه سـيبقي الفرقـة قائمـة، والشحناء مستحكمة.

10- وهناك أمور أخرى ما كانت في أصل وضعها من أمور الإيمــان والغيب ولكنهـا أضـحت كـذلك بعـد الخلفـاء الراشـدين، وهـذه الأمـور هي خلافـة المسلمين، ومن الأحق بها، وتسلسلها وطريقـة تحقيقهـا. فبـالرغم من أن هذه الأمور هي من الأحكام الشرعية العمليـة إلا أنهـا تطـورات في الفكـر والعمل والاستدلال حتى أضحت قضايا عقدية مزقت المسلمين قديماً ومـا زال هذا على صورة رهيبـة إلى اليـوم. فالـذي قسـم المسـلمين إلى سـنة وشـيعة، وقسـم الشـيعة إلى مـذاهب وعقائـد مختلفـة وجعـل بين هـؤلاء وأولئك أخاديد من الفرقة وركاماً هائلاً من الخلاف والشقاء وشحناء طويلة وحروباً ودماء إنما هو الخلاف في أمـر (الإمامـة والخلافـة..) وهـذا الخلاف وإن كان قد بدأ يسيراً زهيداً إلا أنه قد تعمق مع الأيام وتأصل وتباعد حــتى لكأن السنة والشيعة أصحاب دينين مختلفين.

أقول هذه المسائل من الخلاف بدأت في العمــل ثم تعمقت حـتى وصـلت إلى مسائل العقيدة والإيمان، وهذا شأن الخلاف دائماً يبدأ يسـيراً في أمـر قد يكون تافهاً ثم يتطور ويتأصل ويتفرع حتى يصبح عميقاً بعيداً (أذكر وأنــا في رحلـة في السـودان مـع طائفـة من الإخـوة طلاب الجامعـة الإسـلامية بالمدينة النبوية وكان معنا الأستاذ والمربي الفاضل محمد عبدالوهاب البنا. نزلنا في -بور سودان- ووجدنا الجماعة التي تدعو للإسلام في هذه المدينة منشقة على نفسها انشقاقاً عجيباً.

قال لي أحدهم: - إن هؤلاء- يعني إخوانه الذين فارقهم يحكمون على أهــل بور سودان بـأنهم يعاشـرون نسـاءهم في الحـرام، وأن أولادهم أولاد زنـا، فعجبت جــداً وقلت لــه: أسـمعت هـذا منهم؟ قــال: نعم. قلت: وفي أي مناسبة قيل هـذا الكلام؟ قـال: في المسـجد. قلت: يـا أخي، أنـا لا أتصـور كلاماً كهذا يصدر من داع إلى الله! قال لي: إنهم يقولون بأن تارك الصــلاة كافر كفراً يخرج من الملة، ومعنى هذا أن زوجته تطلق منه إذ هي مسلمة وهو كافر، فإن لم تطلق فهو يعاشرها بالحرام، وأولاده من زنا وليسوا من نكاح صحيح. فقلت به: عجباً يا أخي قد وصلت إلى هذا التسلسـل الغـريب العجيب الـذي فهمتـه من كلام إخوانـك ولم يقولـوه نصـاً. قـال: إنـه لازم كلامهم، قلت: إنهم عندما أطلقوا كلمة الكفر على تارك الصلاة ما عنوا مـا ذهبت أنت إليه، وإنما أطلقوا في حقهم ما أطلقه رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم حيث قال: [بين المرء والكفر ترك الصلاة]، ولقد اختلف الإمام أحمد مع صـديقه الإمـام الشـافعي في هـذه المسـألة وقـال أحمـد: تـارك

الصلاة كافر كفراً مخرجاً من الملة. وقال الشافعي: بل لا يخرج من الملة ويدفن مع المسلمين، ويقتل حداً لأنه أقر بالتوحيد. ومع ذلك ما ألزم الإمام أحمد الشافعي وأتباعه ومالك وأبوحنيفة وأتباعهما بما ألزمته أنت إخوانك. أما يسعنا أن نطلق الحديث كما أطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونعمل على أن يكون للزوجة المصلية المؤمنة زوج بار مصل. وللزوج المصلي المؤمن زوجة بارة مصلية، وأن نحاول الإصلاح في ذلك ما استطعنا، وألست تتفق مع إخوانك في شئون كثيرة من أمور الإسلام ألا يكفي ما تتفقان فيه لتكونا يداً واحدة في وجوه أعدائكم. وأعداء الإسلام!!).

الفصل الثاني

الشريعة الواحدة

1- قيل بأن الخلاف في الفروع لا يضر. وقيل بأن الخلاف في الفروع رحمة وتوسعة و(اختلاف الأئمة رحمة)! ومثل هذه الأقوال تحجب الرؤية الصحيحة للوضع المتردي الذي وصل إليه التشريع الإسلامي في عصوره المتأخرة. والذي ورثناه بكل تبعاته وأوزاره.

فأما أن الخلاف الفقهي يضر فنعم والوقائع شاهدة. وهذه الوقائع أكثر من أن تحصى وحسبك معرفة بعض آثارها السيئة فكم من مرة امتنع المتعصبون ممن يزعمون تقليد الإمام أبي حنيفة رحمه الله ورضي عنه الصلاة خلف إمام شافعي والعكس أيضاً. فما هو شعور إمام حنفي يصلي صلاة المغرب مثلاً وبعد أن ينهي الصلاة يقوم رجل شافعي فيعلن للناس أن هذه الصلاة باطلة لأن الإمام لم يجهر بالبسملة؟! وما الفرقة التي كانت في صلاة المسلمين قبل نصف قرن فقط –وما زالت بعض جيوبها إلى اليوم- إلا أثراً من آثار الخلاف الفرعي، وذلك أن عامة المسلمين كانوا يصلون في المساجد الشهيرة بأربع جماعات وأربعة أئمة!! شافعي، وحنفي، ومالكي وحنبلي. وكيف لا يضر الخلاف وهو يصل أحياناً حد التناقض حيث يوجب البعض ما يراه الآخر حراماً أو مكروهاً. فالرأي عند الأحناف أن قراءة الفاتحة للمأموم في السرية مكروهة كراهة تحريمية وغيرهم يرى قراءتها واجبة بل ركناً من أركان الصلاة إن تركها بطلت صلاته.

وليس هذا الخلاف في مسائل فرعية محدودة بل يكاد أن يكون في كل شيء تقريباً إلا فيما عرف من الدين ضرورة، وتضافرت الأدلة الكثيرة على بيانه وإثباته.

وتعظيمنا لأمر الخلاف لسببين: أولهما: أنه يخالف بين القلوب -ولا شك- مهما كان يسيراً. وثانياً: أنه يكبر ويتأصل، ويتشعب مع مرور الزمن فيصبح الخلاف الفقهي العملي خلافاً عقدياً إيمانياً. كما رأينا في مسألة الإمامة. وفي فتنة التكفير والتجهيل والتبديع التي يتراشق بها المقلدون - المتعصبون، والسلفيون المتطرفون. فقد انتقل معهم أمر الخلاف الفقهي

إلى أمر العقيدة والإيمان. وإذا كنا نريد أمة سوية يحب كل فرد فيها الآخر فيجب علينا أن نقطع دابر الخلاف مهما كان يسيراً صغيراً.

وسندنا في ذلك نهي الله عز وجل عن التفرق في الدين حيث يقول سبحانه وتعالى- {شرع لكم من الدين ما وصينا به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب} (الشورى:13) وكذلك تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم لأمر الخلاف، وإنكاره عليه. حيث يقول: [اقرءوا القرآن ما اجتمعت عليه قلوبكم، فإذا اختلفت فقوموا] (رواه مسلم). وفعل الصحابة من بعده حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل الصحابة في مسألة الغسل هل هو من لقاء الختانين أو الإنزال فيقول قوم بهذا وقوم بهذا، فيرسل إلى عائشة فتقول: قال رسول الله: [إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل] فيقول: والله لا يفتي أحد بغيره إلا جعلته نكالاً. أي لقد وضحت الحجة وظهر حكم الله في هذه المسألة بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لأحد -بعد- أن يفتي بخلاف ذلك.

ومن تتبع هذا الأمر وجد كيف عظَّم الله أمر الخلاف في الدين ولام أهله، وبين أنه عقوبة وهلاك، وعلم كيف عظم سلف هذه الأمة أمر الخلاف، وذموا أربابه. ويكفينا في هذا قوله سبحانه وتعالى: {ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم} والنهي عن التنازع هنا إنما هو حول أمر شرعي عمل وهو من شئون القتال. ولا شك أنه من فروع الدين. فالأمة لا يمكن أن تكون يداً واحدة. وقلباً واحداً إلا إذا قضت على جميع أسباب الخلاف بينها.

1- وهنا سنصل إلى هذا السؤال وهي كيف تقضي على الخلاف في أمر التشريع؟

وللإجابة على هذا السؤال لا بد أن نعرف أولاً أسباب هذا الخلاف، وهذه الأسباب تنقسم إلى قسمين:

أ- خلاف معقول لا بد منه، وهذا الخلاف بعضه قد وقع كثيراً في الأمة، ولا بد أن يقع في أمور تستجد، ويجتهد لمعرفة أحكامها. وهنا لا بد من وضع ضوابط للقضاء على آثار هذا الإختلاف الذي يجب أن لا يتعدى الرأي والاجتهاد.

ب- وخلاف غير معقول، قد وقع في الأمة وقد ظهر لكل ذي عين سليمة أنه باطل، وهذا لا يجوز التمسك به، ولا حتى روايته، ويجب أن يدفن وينتهى منه ويصبح مقصوراً على دارسي تاريخ التشريع فقط.

3- فأما الخلاف المعقول فأسبابه غير محصورة، ومن ذلك علم أحد المجتهدين بالحديث -الذي ينص على الحكم- وجهل الآخر به فيفتي برأيه، والاختلاف في فهم المعنى اللغوي، واطلاع أحدهم على وجه من وجوه الرواية في الحديث الواحد واطلاع الآخر على وجه آخر واطلاع ثالث على الوجهين، والاختلاف في تقدير السنة والبدعة، وعدم العلم بالمخصص، والإفتاء بحديث ضعيف يحسبه المجتهد صحيحاً وهو غير ذلك.

وتفاوت النظر في استنباط العلة، وعدم التوفيق في الجمع بين حديثين ظهر منهما التعارض، وعدم العلم بالناسخ والمنسوخ.. الخ.

هذه الأسباب جميعها وغيرها كثير تجعل الحكم في المسألة الواحدة مختلفاً. وهذه الأسباب وغيرها هي التي من أجلها ظهر التفاوت والخلاف في فتاوى المفتين، واجتهادات المجتهدين. وكثير من هذه الأسباب أصبح القضاء عليه سهلاً ميسوراً بعد حركة الطبع والفهرسة والتنظيم للتراث الإسلامي والتي أصبح بواسطتها الاطلاع على مجموع الأحاديث المتفرقة في المسألة الواحدة، وكذلك الاطلاع على آراء المفتين وفتاواهم. ولا شك أن كثيراً من الآراء والفتاوى القديمة التي كانت تخالف الكتاب والسنة أصبحت مهملة الآن بفضل الاطلاع الجيد لعموم الناس على كتب الحديث والفقه. ولولا التعصب المشين الذي ظل عليه بعض المتفقهة والمتأكلين بالدين لكانت وحدة التشريع -وعلى الأقل في أمر العبادة- حقيقة قائمة بالفعل.

ب- وإذا كان الخلاف قديماً بأسبابه التي ذكرنا بعضها آنفاً خلافاً معقولاً ومقبولاً. فإن استمرار هذا الخلاف في أمور وضح فيها الحديث الصحيح، والفهم السليم للقرآن من غيره يصبح خلافاً غير معقول ولا مقبول بل هو تعصب مذموم - يؤدي كثيراً إلى تحريف كلام الله. ورد كلام رسوله صلى الله عليه وسلم وهذا أمر خطير جداً.

فلا عذر اليوم لعالم ينهى أتباعه عن قراءة الفاتحة في الصلاة السرية ولا عذر لإمام ينهى أتباعه عن وضع أيمانهم على شمائلهم في الصلاة، ولا لإمام يرى كراهية دعاء الاستفتاح والبسملة والاستعاذة في الصلاة، ولا عذر لعالم يفتي لأتباعه بجواز شرب قليل الخمر إذا لم تكن من غير العنب، ولا عذر لإمام يجيز لامرأة أن تتزوج بدون ولي مهما كانت شريفة، ولا لإمام أو عالم يسمح لامرأة أن تسافر مع غير محرم وقد وضحت الحجة في كل ذلك من الحديث الصحيح الصريح. محتجاً بأن كل هذه الفتاوى صدرت عن أئمة الفقه والاجتهاد!!

وليس معنى هذا أنه لن يكون هناك خلاف في أمور الشريعة إطلاقاً بل سيكون هناك خلاف ولكنه خلاف لا بد منه في أمور محددة نستطيع ضبطه أيضاً والقضاء عليه.

سيكون هناك خلاف في الحكم على ما يستجد من أمور في حياة الناس: أطعمة وأشربة جديدة. ومعاملات مستحدثة اختلط فيها الحرام بالحلال ويختلف فيها نظر المجتهدين. وسيكون الضابط في الوصول إلى الحق في هذه المسائل: الرجوع إلى الكتاب والسنة، وعقد مؤتمرات للعلماء العاملين وهو أمر ميسور في هذه الأيام. وتقدير المنافع والمضار وذلك ميسور في عصر تقدم فيه فن الإحصاء ومتابعة النتائج.

سيكون الخلاف في مثل هذه الأمور منطقياً ومعقولاً ومقبولاً ولكن بقاء الخلاف في أمر العبادات التي لا تتطور ولا تتغير بتغير الزمان والمكان خلاف مذموم غير معقول ولا مقبول بل ويجب القضاء عليه، وجمع

المسلمين جميعاً فيها -أعني العبادة- على كلمة سواء وفعل واحد. ونبذ تلك الصور المشينة للخلاف والتعصب فيها.

4- وليس القضاء على هذا الخلاف الفقهي شيئاً ميسوراً -وإن كانت بوادئ هذا الأمر قد ظهرت والحمد لله- ولكنه عمل يحتاج إلى جهد طويل وعمل متواصل وأستطيع أن أجمل طرائق القضاء على هذا الخلاف في الأمور الآتية:

أ- العمل على توحيد مصادر التشريع الإسلامي عليها. وهي: الكتاب والسنة، والإجماع والقياس.

فأما الكتاب فقد كفانا الله مئونة الخلاف فيه بأن حفظه سبحانه وتعالى من الضياع والشتات. ولقد كان للعمل العظيم الذي صنعه الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو جمع المسلمين في الأمصار على حرف واحد من القرآن أطيب الأثر في جمع المسلمين. ولولا أمره رضي الله عنه بحرق كل ما يخالف القرآن الذي جمعه لكنا اليوم أمماً شتى، لكل أمة كتاب لا أمة واحدة ذات كتاب واحد.

وإن تتمة هذا الأمر هو وضع موسوعة قرآنية تحرر فيها المعاني اللغوية لألفاظه، والمعاني الشرعية لأحكامه، والمعاني التاريخية لأخباره، والمعاني الصحيحة السليمة لعقائده ثم نبذ كل خلاف ورأي مجانب للصواب في كتاب الله وخاصة ما يسمى بالتفسير الباطني الذي لا ضابط له من لغة ولا شرع، وإنما هو ما تمليه الشياطين والوساوس. وقد سارع من يسمون أنفسهم بالمفسرين العصريين إلى النقل من هذه المباءات!!

وأما الأصل الثاني فهو الحديث الشريف، وهذا المصدر العظيم بالرغم من أنه يعادل القرآن في كثرة أحكامه واتساع بيانه إلا أنه قد اختلط بغيره مما افتراه أهل الأهواء الباطلة والسياسات الخبيثة والنحل المختلفة، وإن كان جهابذة العلم من أهل الحديث قد وضعوا الضوابط والقوانين لتمييز الصحيح من الضعيف وقام رجال مخلصون منهم بالتمييز والتنقية إلا أننا نحتاج اليوم إلى فصل كل ما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم من كل ما افتري عليه، ووضع الثابت من ذلك في موسوعة حديثية واحدة يقال للناس بعدها: هذا ما صح عن الرسول فاحفظوه وارووه واستشهدوا به، ثم نقوم بحرق وإتلاف كل ما سوى ذلك، وسيكون ذلك من أسعد أيام حياتنا عندما نرى أن سنة الرسول قد ضمها كتاب واحد كما ضم كلام الله المنزل على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم كتاب واحد. وعندها نستطيع أن نحكم على كل خطيب ومؤلف وفقيه هل استدل حقيقة بكلام الرسول أم لا. وقد كتبت في هذا الموضوع رسالة صغيرة سميتها: (حاجتنا إلى موسوعة حديثية) بينت فيها الأدوار التي مر بها تدوين الحديث، وكيف اختلط بغيره وواجبنا اليوم نحو حديث الرسول صلى الله عليه وسلم والطريق السليم لجمع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في كتاب واحد.

وأما الأصل الثالث فهو الإجماع وهو مصدر من مصادر التشريع بعد الكتاب والسنة ومعناه: إجماع أصحاب رسول الله، أو علماء المسلمين ومن يعتـد بقولهم في عصر من العصور على مسألة معينة من مسائل التشريع.

والإجمـاع حسـم للخلاف في مسـائل كثـيرة، ولكنـه يُـدَّعي حيث لا يكـون، ويُفتقد حيث ينبغي أن يكون. فكم من عالم ادعى الإجماع في مسائل ولم يكن هناك إجماع، وكم من عـالم أنكـر الإجمـاع وادعى الخلاف، وقـد كـان الإجماع.

وضبط هذا الأصل يحتاج إلى لجنة من علماء المسلمين تتبـع كـل مـا ادعي فيه الإجماع ثم تقوم بتحقيـق ذلـك فـإن كـان ثابتـاً أثبتتـه وإن كـان مجـرد دعوى نفته، ثم تصدر كتاباً تجمع فيه -مبوباً- كل المسـائل الـتي كـان فيهـا إجماع، وبذلك تحدد أيضاً هذا المصدر.

ولا شك أن الإمام المسلم في زماننا يستطيع استخدام هذا المصدر حـديثاً للقضـاء على كثـير من الخلاف في المسـائل الشـرعية الحادثـة كالأطعمـة والأشـربة الحادثـة الـتي كـثر حولهـا الجـدل والخلاف وصـنوف المعـاملات الحادثة كالتأمين والمضاربات والسندات.. الخ وذلك بجمع العلماء المشهود لهم بالخيرية والعلم للنظر في هذه المسائل وإعطـاء الـرأي والحكم فيهـا وبذلك ينبذ الخلاف وينقطع الجدل.

وأما المصدر الرابع فهو القياس وهو أصعب المصادر ضبطاً وتطبيقـاً ولكن من الممكن وضع ضـوابط محـددة لهـذا المصـدر وطـرق محـددة مبسـطة لطريقـة اسـتخدامه في اسـتنباط الأحكـام الشـرعية. وبـذلك يصـبح هـذا الميزان صالحاً معلوماً مفهوماً للمجتهدين في شتى بلاد الإسلام.

ب- وأما الأمر الثـاني فهـو وضـع مرجـع فقهي ذي رأي واحـد وحكم واحـد يحوي جميع المسائل التي يتحدد فيها الحـق والباطـل وخاصـة في مسـائل العبادات. وتعميم هذا على شتى بلاد الإسلام.

وباختصار نحن في حاجة إلى توحيـد المسـلمين في عبـاداتهم حـتى تصـبح صلاتهم وصيامهم وزكاتهم وحجهم، ومناسكهم واحدة لا خلاف فيها.

ج- ومما سيقف عقبة في سبيل هذه الوحدة التشـريعية الواحـدة هـو كتب الفقه القديمة بمشاكلها وتناقضـاتها، وفرضـياتها ومخالفتهـا لـروح العصـر. والكتب في ذاتها أدوات صماء لا تشكل خطراً على سعينا في سبيل وحـدة التشريع ولكن المتعصبين لها هم الذين سيعز عليهم ترك هذه الكتب الـتي حملـوا شـهاداتهم الباطلـة من حفظهـا والتعصـب لهـا - وتتوقـف إمـامتهم الدينية على بقائها وقدسيتها، ولا شك أن إطلاع المسـلمين المخلصـين في زماننا على ما في هذه الكتب من تعصب مشين، وتـرد في هاويـة التقليـد، ومخالفة لروح الدين وسماحته -مع احترامنا وتقديرنا لمؤلفيها- سيقلل من شأن هذه الكتب ومن المتعصبين لها، وسيرفع ولا شـك من شـأن الـدعوة السليمة في العودة إلى الكتاب والسنة. وليس المقام هنا مقام بيـان لهـذا الإجمال وسيكون لهذا البيان مقام آخر إن شاء الله تعالى.

والقول بأن هذه الكتب سلم لمعرفة الكتاب والسنة قـول باطـل لا يسـتند إلى علم ولا خلق بل هي عوائق لفهم الكتاب والسنة. وأنا أرشـد من يريـد البرهنة على كلامي أن يقوم بتدريس (آية الوضوء وحديث عثمان بن عفان في الوضوء في صحيح البخاري) لمجموعة من الأطفال ثم يقـوم بتـدريس أي مختصـر فقهي لأي مـذهب من المـذاهب لمجموعـة أخـرى في نفس السـن والدرايـة وأنـا جـازم الآن أن الأول سـيكون بـدرس أو درسـين ولن يكون الثاني إلا بشهور عديدة. وأنا أشهد أن كثـيراً من المتعلمين الـذي لم يقرءوا آية الوضوء ولا حديث الوضـوء، وتعلمـوا الوضـوء من كتب الفقـه لا يحسنونه ولا يفهمونه على النحو الكامل النظيف الخالي من التعقيد.

وإنني في هذا الصدد لأحمـد اللـه تبـارك وتعـالى إذ انتشـر في المسـلمين اليوم الدعوة إلى فقه الكتـاب والسـنة على النحـو السـهل الميسـر الـذي تعلم به السـلف الصـالح وأصـبحت الـدعوة إلى التمسـك بـالكتب الفقهيـة المعقدة قاصراً على طوائف تنـدثر تباعـاً، وينـدثر معهـا التعصـب والتعقيـد والجهالة.

ولا شك أننا سنستفيد كثيراً عندما نطالع ونـدرس كتب الفقـه الـتي صـنفها أئمة المذاهب أو التي ألفت بعد عهدهم بقليل، هذه الكتب التي ذكر الإمام فيها رأيه ودليله من الكتاب والسنة وناقش الآخرين في آرائهم وأدلتهم.

وارتضى مـا وفقـه اللـه لـه. إننـا بـذلك سـنطلع على مبلـغ علم من سـبقنا بالإيمـان والعلم والعمـل وسـيكون لآرائهم النـيرة هدايـة لنـا في مشـاكلنا الحاضرة. ولكنها لن تكون جميعاً كذلك فإن ظروف البيئة التي عاشوا فيها جعلتهم يفتـون في كثـير من المسـائل بـآراء لا يمكن لنـا الآن قبولهـا. ولا العمـل بهـا. وكيـف نقبـل اليـوم بأنـه لا يجب على الـزوج تكفين زوجتـه المتوفاة!! لأن الاستمتاع بها انقطع بالوفاة!! وقد كان الإنفاق للاسـتمتاع!! بل وكيف نقبل إجبار الزوجة على مـا يسـمى بـبيت الطاعـة وهـو إرغامهـا على حياة لا تريدها ونجبرها على قص شعرها وإعطائه لزوجها حتى تسمح له بفسخ عقد تبينت هي فيمـا بعـد أنـه لا طاقـة لهـا على الحيـاة مـع هـذا الرجل لأنها كرهته!! وغير ذلك كثير يطول حصـره ولا ينبغي أن تقـف هـذه الآراء عقبة في سبيل وحدتنا التشريعية وبقـاء ديننـا. وإبقاؤنـا لهـا إنمـا هـو إحترام لقائليها من الأئمة والفقهاء!!

نحن نحترمهم ونقدرهم ونجلهم ولكننا لا نزعم العصـمة لهم ولا نقـول بـأن جميع أقوالهم حق يجوز الأخذ به. بل بعض أقوالهم باطل لا يجوز الأخـذ بـه وقد وضحت الحجة وظهر السبيل وبان الدليل. والله المستعان.

5- وبعـد إذا اسـتطعنا توحيـد مصـادر الشـريعة وضـبطها ووضـع النظم والقواعد للاستفادة من تراثنا الفقهي التشريعي. فإن الخطـوة التاليـة هي الجهـاد لإحلال هـذه الشـريعة الغـراء مكـان الفوضـى التشـريعية الـتي نستوردها من الشرق والغرب. وهذا واجب دعـاة الإسـلام الـذين سـيبتلون ويحاربون في سبيل ذلك. وستكون الغلبة لهم إن شاء الله.

وإن واجب واضعي المنـاهج في الجامعـات الإسـلامية الـتي تـدرس الـدين فقـط أن يحلـوا تـدريس القـوانين والمعـاملات المدنيـة الإسـلامية بتوسـع

وشرح مقارنة بين الإسلام والكفر أن يقتصدوا جداً في تعليم الطلاب آداب الحاجة، وشروط المياه، ومذاهب العلماء فيمن قال لزوجته (أنت طالق مرتين إلا واحدة هل تطلق ثلاثاً أم تكون طالقة مرة واحدة!!) كفانا إغراقاً في النوم وسعياً في الفوضى. وعماية وجهالة!! درسوا أبناء المسلمين في الجامعات. أحكام الإسلام وحدوده في القتل والزنا وشرب الخمر والسرقة والحرابة. وقارنوا لهم بين نظافة الإسلام وقذارة أعدائه ودرسوا لأبناء الإسلام قوانين السلم والحرب والمعاهدات ونظام السياسة الشرعية بين الحاكم والمحكوم وبين الدولة الإسلامية ودول الكفر.

وأما جامعاتنا المدنية التي اقتصرت على تعليم شئون الدنيا فإن واجب القائمين عليها هو إدخال تعليم الدين من الكتاب والسنة بنظافته وطهارته وسموه فإن فيه حلاً لمشاكلنا الحاضرة، وتقريباً لوجهة النظر وتوحيداً لأمتنا التي يلعب الموج بسفنها في كل اتجاه.

إننا إن فعلنا ذلك فإنه سيخرج في وقت قصير من الزمان علماء أجلاء يفهمون الشريعة الإسلامية على مستوى العصر. ورجال -أجلاء من أهل الدنيا- مهندسون وأطباء وصيادلة وتجار وأدباء يفهمون الدين على مستوى العصر أيضاً وبذلك يجد الجميع بغيتهم في الوحدة.

واليوم للأسف نملك شيوخاً يفهمون قشور الإسلام على مستوى عصور قديمة تغير بعدها نظام حياة الناس وطرائق معاملاتهم. ما قيمة عالم يقرأ آيات الربا ولا يفهم نظام المعاملات الربوية القائم الآن وما قيمة عالم لا يستطيع الرد على ملحد يزعم أن قطع اليد في السرقة وحشية، وأن الزواج بأربع نساء همجية ورجعية؟ وما قيمة عالم بالشريعة يزعم أن السياسة ليست من الدين وأنها وقف على هذا الطابور الجاهل من محترفي السياسة ولصوصها؟! وما قيمة عالم بالشريعة لو دعي إلى نداء الجهاد وحمل السلاح يقول: ليس هذا من شأن رجال الشريعة إننا نستطيع فقط الفتوى في الحلال والحرام والحيض والنفاس والطلاق!!

إننا نريد علماء على مستوى العصر علماً وثقافة وأدباً وخلقاً وشجاعة وإقداماً وفهماً لأساليب الكيد والدس على الإسلام، ولا نريد هذا الطابور من العلماء المحنطين الذين يعيشون بأجسادهم في عصرنا ولكنهم يعيشون بعقولهم وفتاواهم في غير عصورنا.

لو وجد هذا الصنف من العلماء فإنه سيكون الرباط القوي الذي يحزم هذه الأمة المفككة في رباط تشريعي وخلقي واحد.

وهذه دعامتنا الثانية نحو وحدة أمتنا الشريعة الواحدة التي يقوم عليها ويحرسها علماء أجلاء يعيشون على مستوى عصرهم فهماً وعلماً وعملاً.

6- لعلي بهذا الاستطراد السابق لم أشط بك أيها القارئ الكريم فما زلنا في سعينا نحو تحقيق وحدة شريعتنا. وقد ذكرت في الفقرة السابقة إن ذلك لن يكون إلا برجال على مستوى عصرهم فهماً وعلماً وذلك أن (الحكم على الشيء فرع عن تصوره) ومعنى هذه العبارة: إنك لا تستطيع أن تحكم على شيء إلا إذا تصورته تصوراً صحيحاً. والعلماء الذين يراد

منهم الحكم على ما جد من أمور في حياة الناس لا بد أن يعلموا أن هذه الأمور والأحكام الإسلامية تشمل السياسة والمعاملة.

ومعاملات الناس في عصرنا متشعبة معقدة وما لم يوجد لدينا رجال للإسلام يفهمون السياسة الحاضرة بدروبها ومنحدراتها والتوائها ليحكموا عليها، وليوجهوها نحو الإسلام فلا أمل في خلاص هذه الأمة مما هي فيه. وأولى أمور الناس في الشريعة بالبحث والحكم هي أمور السياسة التي يحتكرها اليوم أناس ليسوا من أهلها بأي حال. وأهل السياسة الحقيقيون هم رجال الإسلام وعلماء الأمة الذين سيحققون العدالة الحقة والمساواة الحقة، ويقودون الأمة بشجاعتهم وشهامتهم نحو النصر. والحكم على المعاملات الجارية من بيع وتجارة ورهن وضمان وتأمين يجب أن يكون لرجال الإسلام الذين يفهمون الموازين العادلة التي أنزلها رب السموات والأرض. وإذا كان هؤلاء العلماء أصحاب مصادر واحدة للحكم، وثقافة واحدة للحياة فإن أحكامهم على هذه الأمور ستكون متقاربة إن لم تكن واحدة. وهذا ما نفقده ونسعى إليه. ونصرخ في أذن الأمة لتسعى إلى إيجاده.

7- وحتى نصل إلى ذلك وقد يكون بعيداً نسبياً فإن ثمة موازين عاجلة إن استعملناها في وقتنا الحاضر يسرت علينا سبيل هذه الوحدة وجعلت أحكامنا على الأمور صائبة:

أ- الأمر الأول الذي أنصح به علماء المسلمين الذين يتصدرون للفتيا والتشريع أن يطلعوا على آراء غيرهم وأدلتهم قبل أن يفتوا فقد يكون الحق والحجة مع غيرك.

ب- والأمر الثاني أنه لا يجوز أن يفتي الناس من لا يعرف دليل فتواه من كتاب أو سنة. ولا يكفي أبداً أن يفتي المفتي بقول ينسبه إلى أحد الأئمة المجتهدين وقد قال الإمام العظيم رحمه الله ورضي عنه أبو حنيفة النعمان: "حرام على من لم يعلم دليلي أن يفتي بقولي" فلنتق الله ولا ننشر رأياً في الناس إلا بعد علم دليله من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ج- وأما الأمر الثالث: فإن واجب العلماء أن يتهموا آراءهم في الدين فكم من قائل رأياً اليوم عائد عنه غداً. فلنتهم آراءنا، ويكفينا في ذلك كلام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: "أيها الناس اتهموا الرأي في الدين. فوالله لقد كدت أن أرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره يوم حادثة أبي جندل) وكان ذلك في فتح الحديبية عندما وقع الرسول شروطاً لم يرتضها المسلمون وظنوها ظلماً لهم، ورضي بالدنية والذل، وقد كانت بفضل الله غير ذلك بل كانت أعظم فتح في الإسلام. فالواجب على كل عالم من علماء المسلمين إتهام رأيه في الدين وخاصة في أمور السياسة الشرعية والدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وما يستجد من أمور في حياة الناس فيسارع إلى التكفير بغير دليل، أو التفسيق أو التحليل أو التحريم فيقول الله له: كذبت لم أحرم هذا!! أو يقال له كذبت لم يكفر فلان بهذا الفعل بل كفرت أنت!! ومن قال لأخيه المسلم يا كافر فقد باء بها أحدهما.

د- وأما الأمر الرابع فإن الواجب على كل مسلم أن يعذر أخاه ويسامحه في الأمور الخلافية التي لا يتحدد فيها معنى النص تحديداً يجعل ما سواه باطلاً، وكم من وقائع كان فيها خلاف بين الصحابة، ولكن بعضهم عذر بعضاً، وسامحه. وترك له رأيه.

هـ- ولم يبق بعد إلا أمر أخير وهو أن يتقي الله امرؤ يتكلم عن الله وعن رسوله!! يتكلم باسم الله وباسم رسوله!! فليحذر من الكذب عليه.

هذه موازين خمسة أرجو إن وزن بها علماؤنا أن يوفقوا دائماً إلى الحق وبذلك نحقق الشريعة الواحدة ونخرج مما نعيش فيه من فوضى تشريعية في جميع نواحي حياتنا.

بعث آداب السلوك والخلق

1- لو قيل إننا أمة بلا أخلاق لما كان هذا القول كذباً! ولو قيل إن من أسباب نكبتنا الحاضرة ضعف أخلاقنا لكان هذا قولاً صواباً، ولو قلنا إننا في نهضتنا الحاضرة يجب أن نسعى إلى بناء أخلاقي متين لكانت هذه الدعوة واجبة بل هي دعوة الإصلاح الحقيقية. فما الأخلاق؟ وما منزلتنا منها؟ وكيف نكون أمة ذات خلق؟

2- لن أبحث هنا بحثاً فلسفياً عن الأخلاق وموازينها وأهدافها وغاياتها وإنما أريد أن أبحث حيث يكون الإتفاق عاماً، والقضايا لنصل إلى ما نريد دون عناء وإعنات.

أ- لا ينكر أحد أن أخلاق علمائنا -إلا من شاء الله منهم- وقادتنا ومفكرينا وأصحاب الأقلام منا في غاية السوء. فالصدق والشجاعة وهما دعاماتا الأخلاق كلها تكادان أن تكونا مفقودتين بين أولئك وبين عامة الشعب إلا أفراد قلة - يهمل حكمهم لقلتهم وندرتهم.

ب- ولا ينكر قيمة الأخلاق في ميزان الواقع إلا جاهل وأعني بذلك أن فائدة الأخلاق وقيمتها المادية قد تكون أكبر من المال والعلم والشهادة والخبرة. ومثال ذلك تاجر يملك مائة دينار وهو ذو خلق وتاجر يملك مائة دينار وهو خلو من الأخلاق الطيبة، في ميزان الواقع والمادة لو كانت خبرتهما بالتجارة سواء لربح الأول أضعاف ما يربح الثاني. ولأفاد مجتمعه أضعاف ما يفيده الثاني بل التاجر الخالي من الأخلاق قد يضر مجتمعه بالإحتكار والغش وغير ذلك.

وجندي ذو خلق أفضل في الميدان من مائة جندي بلا خلق فمن الأخلاق الشجاعة وهي مطلوبة في الميدان، ومن الأخلاق الأمانة. وإذا لم يكن الجندي أميناً فهو عدو. ومن الأخلاق الإيثار والتضحية ولا ينتصر جيش إلا بإيثار وتضحية، وأما جيش يحرص كل فرد فيه على حياة نفسه، فإنه لا يذوق طعم النصر.

وعــالم ذو خلــق ســيكون تــأثيره في مجتمعــه أضــعاف أمثالــه الخــائفين المماثلين المنافقين بل إن أولئك وإن حملـوا العلم وحفظـوا المسـائل هم دعاة إلى الشر صادون بفعلهم وقولهم وسيرتهم عن سبيل الله.

وحاكم ذو خلق - هـو رحمـة اللـه في الأرض ولا أقـول هـو خـير من حكـام غــيره ليس عنــدهم أخلاق بــل الحــاكم إذا عــري عن الصــدق والشــجاعة والأمانــة والرحمــة فلن يكــون إلا ذئبــاً جائعــاً مســلطاً على رقــاب النــاس وأعراضهم. وأظن بعد ضربي لهذه الأمثلـة أنـه لا ينكـر فضـل الأخلاق - إلا جاهل غبي ورحم الله شوقي إذ يقول:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإن من الشعر لحكمة!! فأمتنا ذهبت يوم ذهبت أخلاقها. ولن تعود للحيــاة إلا يوم تعود هذه الأخلاق التي جعلت منا أمة في السابق.

3- قد يقال إننا في حاجة إلى علم وتقدم مادي وسلاح وخبرة ولا ننكر هذا ولكنه دون سـعي إلى بنـاء أخلاقي فإنـه ضـائع ذاهب، فنظـرة واحـدة إلى طبيب قد كفلت له المقدرات المادية. والمقدرة العلمية الطيبــة وهــو عــار من الأخلاق سترينا كيف تهدر نقودنـا هبـاء، ويعـود مرضـانا بعلـل أكـبر من التي ذهبوا بها إلى مستشفياتنا. ونظرة أخرى إلى مهندس حاذق قد أؤتمن على مشاريع الأمة وأموالنا سترينا كيف ضاعت هذه الأموال هـدراً، وكيـف فقد سيادة المهندس حذقه وتجربته وعلمه يـوم فقـد أمانتـه وأمانـة أمتـه. كيف غشها لنفسه، وسرق مالها لجيبه.

ونظرة ثالثة -مقنعة- سترينا كيـف إن قوادنـا ورؤسـاءنا الـذين كـان الأمـل فيهم أن يسهروا لننـام!! وأن يخـاطروا بأنفسـهم لننجـو نحن. وأن يقـدموا أرواحهم لتحيا أمتهم. كيف أنهم آمنين محاطين بـالحراس!! ونمنـا خـائفين متوجسين من أعدائنا. وكيف شبعوا وجاعت بطون شعوبهم. وكيف قدمونا للموت وجلسوا خلفنا يرسلون الدموع.

نحن في حاجـة إلى أخلاق!! أسـتوردوا الأخلاق الجيـدة قبـل أن تسـتوردوا السلاح الجيد وعلموا شعوبنا الخلق قبـل الطب والهندسـة وفنـون الحـرب والقتال!! نحن في حاجة إلى بعث خلقي كامل من الـرأس إلى القـدم من السيد إلى الخادم . فكيف نبني هذه الأخلاق؟؟!!

4- في مطلع هذه الرسالة انطلقنا من منطلق محـدد وهـو الإسـلام وأحب أن أذكر به ثانياً حتى لا نتيه بفعل ثقافتنا المتغـايرة ونظرتنـا المختلفـة إلى الأخلاق إذ ما من حق كثر حوله الخلاف ما كثر حـول الأخلاق فـالنظرة إلى الخلق مختلفة باختلاف العقيدة، والمذهب والإتجاه، وتبعاً لذلك البيئـة حيث يتجمع أناس تسـود بينهم عقيـدة واحـدة. وأمثلـتي السـابقة الـتي شـرحتها وبينتها لن تفيد جاهلاً يقول: الأخلاق نظام برجوازي وضعه الأغنياء ليستذلوا به الفقراء فيعلموهم الأمانـة حـتى يحـافظوا على أمـوالهم والصـدق حـتى يسـودوا عليهم.. ولن تفيـد سـاقطاً آخـر يقـول مـا للجنس والأخلاق تلـك حاجات وحريات شخصـية لا دخـل للأخلاق بهـا. ولن نـذهب لننـاقش هـؤلاء وهؤلاء ما هم فيه من عماية وجهل. وقـد كتبت رسـالتي هـذه لأبنـاء أمـتي التي لم تتدنس فطرهم بعد والذين يملكون قدراً سـوياً من الفهم والخلـق

والـذين يشـتاقون إلى رفعـة أمتهم وعزتهـا ولكنهم يجهلـون الطريـق إلى ذلك.

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى الجواب عن السـؤال الـذي طرحتـه آنفـاً مـا الأخلاق؟ وأقول لقد كفانا الله مئونـة هـذا البحث الـذي وصـل فيـه النـاس قديماً وحديثاً. الأخلاق التي نريدها هي تلك التي بينها اللـه في كتابـه وبينهـا رسول الله بقوله وعمله.

وليست رسالته إلا تتميماً لمكارم الأخلاق. ويكاد أن يكون الدين كلـه خلـق فتوحيد الله خلق لأنه اعتراف بالحق وشـكره خلـق لأنـه عرفـان بالجميـل، وعبادته خلق لأنه مجازاة للإحسان بالإحسـان، وضـوابط المعـاملات خلـق، لأنها أخذ بالعدالة، والشجاعة خلق وقد أمر بـذلك والأمانـة خلـق وقـد أمـر بذلك، وليس هناك من نهي إلا وهو نهي عن خلق سـيئ. فـديننا دين أخلاق ومن كان عارياً منها فليس بمسلم قطعاً. هـذه قاعـدتنا الـتي نقـف عليهـا، أخلاق الإسلام الحميدة من شجاعة وتراحم وأمانة وصدق وعرفان بالجميل وشـكـر على الإحسـان، وعفـو عنـد المقـدرة، وصـبر على البلاء ومجالـدة الأعداء وغير ذلك من أخلاق لن يحوي دستور العالم أجمع قطـرة من بحـر دستور الإسلام في الأخلاق.

5- ولكن يـا حسـرة على المسـلمين. إنهم أكـثر الأمم عريـاً من الأخلاق وانغماساً في الرذيلة، وإغراقاً في الفوضـى والقـذارة والانحطـاط!! واللـه إن الإسلام من هذا براء!! فمن هذا شأنه ليس من الدين في شيء.

6- وهنا يبرز هذا السؤال. عرفنا الخلق الذي نريد بعثه ونشره وعرفنا حال الأمة. عرفنا الدواء وعرفنا المريض فكيف نعالج كيف نصـيب هـذه الأخلاق المكتوبة لتكون نمـاذج حيـة متحركـة؟ كيـف نبعث أخلاق أمتنـا من جديـد؟ وتفصيلات هذا الجواب ليسـت من موضـوعات هـذه الرسـالة، ولقـد بحثت هذا الأمر مفصلاً في (أصـول الـدعوة وقـواعـدها "الأصـول العلمية للـدعوة السلفية") أرجو أن أوفق إلى نشره قريباً -إن شاء الله- وسأكتب هنا بيانـاً مجملاً للجواب على هذا السؤال:

هناك ثلاث دعائم رئيسة لتعليم أي سلوك أو خلـق أو عقيـدة أمـا الدعامـة الأولى فهي البيان. ونعني بالبيـان إيضـاح الفكـرة المقصـورة سـواء كـانت عقيدة أو سلوكاً أو خلقاً. وللبيان أساليبه الكثيرة المتعددة.

وأما الدعامة الثانية فهي بيان الغاية والمقصـد لهـذه الفكـرة وبيـان الغايـة بمثابة الحافز للعمل. وبدون هذا الحافز لا تندفع النفس للعمل والامتثال.

وأما الدعامة الثالثة: فهي امتثال الداعي إلى الخلق بما يقول به، والتزامـه بكلمته.

وعلى الأسس السابقة سـنبين دعوتنـا إلى الأخلاق، بيانهـا أولاً من الكتـاب والسنة بأي أسلوب سواء كان خطابـة أم كتابـة شـعراً أو نـثراً أو مقالـة أو تأليفاً. وثانياً قرنها بالغاية والهدف منها، وبيان آثارهـا في النفس والمجتمـع والحياة الدنيا والآخرة. وثالثاً امتثالنا نحن لما نقول به، فلا يصدر منـا إلا مـا نستطيع فعله، وما نقدر نحن على أدائه.

وعلى أساس من القواعد السابقة سنحاسب أنفسنا على ما نقـول ونفعـل ونحاسب غيرنا على ما يقول ويفعل؛ سنحاسب أنفسنا على الأخلاق سـواء كانت شيئاً هاماً عظيماً كأمانة الحـاكم وصـدقه وشـجاعته، أو شـيئاً يسـيراً كإلقاء قارورة فارغة في الطريق أو تقذير مكان عام!!

وعلى أساس من القواعد السـابقة سـنعاقب على مخالفـة مبـادئ الأخلاق كما نعاقب على مخالفة لوائح القـوانين. ويجب عندئـذ أن نقـدر الغرامـات المادية والأدبية لكل مخالفة لخلق نتفق عليه.

لماذا لا نفرض عقوبة مقدرة لمن يسـب الأعـراض؟ ويلعن الوالـدين؟. بـل ويلعن الدين والرب والرسول! وأي مقدرات لنا بعد انتهاك حرمـات الـدين والعرض والرسالة والألوهية!! أيسن القانون لسب الحكام وتقدر العقوبات الزاجرة لذلك ولا يسن القانون لمن يهـدم عقيـدة الأمـة وخلقهـا وعرضـها وتاريخها ودينها!.

يجب أن نطـالب بوضـع قـانون أخلاقي كامـل يقـدر العقوبـة على إسـاءة الخلق من سب الرب ابتداءً إلى البصق في الشارع انتهاءً ويحق أن يكــون كل فرد فينا حارساً لهذا القانون ابتداءً من الحـاكم المنصـب وانتهـاءً بأقـل من عامة الناس.

لست أدري كيف نرشح للطب والهندسة والقيادة الحربية والتربية والتعليم والوعظ والإرشـاد والخطابـة أناسـاً غـير ذي خلـق؟ لمـاذا لا يوضـع قـانون أخلاقي يحاسب كل أولئك على أخلاقهم وسـيرتهم قبـل أن يحاسـبهم على عملهم وثقافتهم؟!

ولست أريد بذلك أن أجعـل السـيف مسـلطاً على رقـاب النـاس عنـد كـل صغيرة وكبيرة. كلا! بل أريد أن نلتزم بتنفيذ فقط ما نتفـق عليـه وذلـك أن تساهلنا في صغائر الأمور يجرنا إلى التساهل في عظائمها.

لقد أصبحنا ننظر إلى كذب الحاكم على شعبه بنفس النظرة التي ننظر بها إلى أب يكذب على ابنـه، ويـوم نلـوم أبـاً يكـذب على ولـده لحرصـنا أن لا يتعلم طفل من أطفال الأمة الكذب. فإننا سنعظم هذا الأمر من المسـئول والحاكم.

إن الجريمة الخلقية جريمـة سـواء ارتكبت مـع فـرد واحـد أو أمـة وشـعب ويجب أن تعظم الجريمة لذاتها قبـل أن نعظمهـا لآثارهـا المباشـرة. فاللـه سبحانه وتعالى يدخل إمرأة النار في هرة لأنها حبستها حـتى مـاتت جوعـاً، لأن هذا الفعل في ذاته جريمة خلقية بصرف النظر عن أثـر هـذه الجريمـة المباشرة وأنه موت قطة!!

7- إن أول عمل سنقوم به لننشر الأخلاق الكريمة هو استنكار ما نـراه من إساءة للخلق بأي صورة من الصور ومن أي فرد من الأفراد.

8- إن أبناء أمتنا يزورون بلاد الغرب، ويكون جل حديثهم وإعجابهم على ما شاهدوه من حسن المعاملة، لا مـا شـاهدوه من تقـدم وحضـارة. وبعـد أن فتحت الضفة الغربية ليزورها أبناء العرب فإنهم يشـدهون بحسـن معاملـة الجندي الإسرائيلي لامرأة عربية تحمل طفلاً فيحمل عنها طفلها حتى تنجز

معاملاتها ويعطي طفلها الحلوى والبسكوت ويهش لـه - ثم يودعهـا بكلمـة طيبة. فإذا انتقلت إلى الشاطئ الآخر شاطئ العرب سمعت الإهانة، ورأت الشماتة، وعطش وليدها ولم يجد شربة ماء، ولم تنجز معاملتها إلا بعـد أن ينفد صبرها!! وهذا هو الخلق الحسن يحمل عدوك على احترامك وهذا هـو الخلق السيء يحمل صديقك على عداوتك، وكيف تعيش أمة وتحيـا يسـود بين أفرادها مثـل هـذه الأخلاق الـتي نعرفهـا جميعـاً. إننـا جميعـاً مطـالبون باسـتنكار كـل صـور الإهانـة الخلقيـة لأي فـرد منـا في أي مـوطن من المواطن، وإن كل فرد منا مطالب بـأن يسـلك أمثـل الأخلاق في معاملتـه لإخوانه، ليس مسلماً من يتعدى الصـفوف ليقطـع تـذكرة! أو ليـدخل على طبيب، أو ينجز معاملة!! وإخوانه ينتظرنه في ذلة مهينة، وفوضـى مخزيـة، فمتى نفيق لتغيير هذا الواقع المرير.

9- إن بعث هـذه القضـايا الخلقيـة سـيجعلنا نضـع حسـاباً لكـل مسـئول يستخدم المسئولية الـتي أناطتهـا الأمـة بـه في سـبيل مصـلحته ومصـلحة معارفه وأقاربه. إن الأمة لا تستفيد من مقدراتها، ومالها وإمكانتها إلا بجزء يسير وأما الباقي فإنه يصـرف في المصـالح الخاصـة وهـذه قضـية خلقيـة خطيرة يجب أن نضـع لهـا حسـاباً وقانونـاً فليس خلقـاً أن تـؤمر الشـعوب بعيش الكفـاف والتقشـف ويعيش الملـوك وأشـباه الملـوك في الحريـر والديباج.

10- وفي نهايـة هـذا الفصـل أقـول: نحن بحاجـة إلى وضـع قـانون أخلاقي للأمة بأسـرها، فلا نرفـع إلى مسـتوى المسـئولية إلا من هـو أهـل أخلاقيـاً وننحي بواسطة هذا القانون عن المسئولية من ينتهك حرمـة هـذه الأخلاق، وبذلك نضع الأمة جميعها في موضع الحارس لأمانة الأخلاق الـتي بـدونها لا نستطيع النهوض والحياة مرة ثانية.

من هم أعداؤنا؟

1- إذا استطاعت أمتنا أن تعرف منطلقها نحو النصـر، وأرضـها الـتي تقـف عليها وأنها الإسلام، واستطاعت في ظـل الإسـلام أن توحـد عقيـدتها، وأن تنظم تشريعها وتوحده، وتـنزل بـه إلى واقـع الحيـاة، واسـتطاعت بعـد أن تبني أخلاقها بناءً سـوياً متكـاملاً فليس أمامهـا بعـد إلا إن تعـرف أعـداءها، لتحـذرهم ولتواصـل سـيرها نحـو العـز والمجـد. فمن أعـداء هـذه الأمـة الإسلامية؟

وقبل أن أجيب على هذا السؤال، أحب أن أبين القاعـدة الـتي يبـنى عليهـا اعتبار العداوة وانتفاؤها.

إن أسباب العداوة بين الأمم غير الإسـلامية كثـيرة منهـا العـداوة من أجـل الجنس، والعداوة بسبب اللون، والعداوة بسبب المصالح ومنـاطق النفـوذ، والعداوة بسبب الدين. وكل هذه الأسباب تؤجج حروباً، وتدمر بلاداً. وتفـني شعوباً. وقد يتفق هؤلاء الأعداء الذين فرقتهم الأسباب السـابقة إذا وصـلوا إلى حلول رضيها الجميع وهنا ينمو ما يسمى بالتعايش السلمي. وقد تكون هذه الحلول تنازلاً من كلا الطـرفين عن جـزء ممـا يعتقـد بـه، ويسـعى من

أجله. ولكل ما سبق أمثلة كثيرة يعلمها من اطلع على تاريخ الأمم وحروبها ومشاكلها.

والأمة الإسلامية ينبع اعتبارها للأعداء ابتداء من عقيدتها. فأعداء هذه الأمـة هم أعداء دينها، وكذلك من يساعدهم ويظاهرهم ويشـد أزرهم في حربهـا. وعلى هذا الأسـاس، لا نقبـل صـداقة أمـة وشـعب يتـودد إلينـا بالمسـاعدة المادية ويحارب ديننا وعقيدتنا. وبالمفهوم السابق تصبح كلمــة (كـافر) في الشـريعة تعـني (عـدواً) بالصـفات المـذكورة لـذلك. فالكفـار المحـاربون لعقيدتنا. ولمن ينتمي إليها أيا كانوا لا يجـوز اعتبـارهم أصـدقاء إلا أن اردنـا انسلاخاً من رسالة الإسلام.

وهؤلاء الكفار في وقتنا الحاضـر المحـاربون لنـا ولعقيـدتنا هم الشـيوعيون الملحدون، والنصارى المتعصبون الداعون لحرب الإسلام وقتل المسلمين، واليهود المتعصبون المحاربون، وطوابير المنـافقين المنبـثين في صـفوفنا. والوثنيون المتعصبون المحاربون للإسلام.

أما اعتبار كون هؤلاء أعداء لنا شرعاً فلا مجال للنقاش فيه لأنه حكم يعلمه كل مسلم مطلع على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعـالى: {يـا أيهـا الـذين آمنـوا لا تتخـذوا اليهـود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين} (المائدة:51).

وقوله تبارك وتعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخـذوا عـدوي وعـدوكم أوليـاء تلقون إليهم بالمودة وقد كفـروا بمـا جـاءكم من الحـق يخرجـون الرسـول وإيـاكم أن تؤمنـوا باللـه ربكم إن كنتم خـرجتم جهـاداً في سـبيلي وابتغـاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل} (الممتحنة:1).

وقوله تعالى: {لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد اللــه ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبنـاءهم أو إخـوانهم أو عشـيرتهم أولئـك كتب في قلوبهم الإيمـان وأيـدهم بـروح منـه ويـدخلهم جنـات تجـري من تحتهـا الأنهار خالدين فيها رضي اللـه عنهم ورضـوا عنـه أولئـك حـزب اللـه ألا إن حزب الله هم المفلحون} (المجادلة:21).

ولقد كان تفكك صف المسلمين وضعف قوتهم من جراء موالاة أعداء الله تبارك وتعـالى والبـوح بأسـرار المسـلمين لهم، والتـاريخ القـديم والحـديث شاهد أمين على ذلك.

وإن أعظم خطر على الأمـة هـو هـؤلاء العملاء الـذين ينبثـون في صـفوفنا باسم (الخبراء) وخاصة في شئوننا العسكرية والحربية ولقد كان البلاء كـل البلاء من اطلاعهم على عوراتنـا، وتسـلمهم زمـام أمورنـا، واستشـارتهم وطلب نصحهم في حربنا مع بعض أعدائنا وهم من ألد أعداء أمتنا.

ولست أعني بذلك أن نعلن الحرب منذ البدء على كل أولئـك، وإنمـا أردت اعتبـارهم من البـدء أعـداءً -مهمـا بـالغوا في إظهـار عطفهم ومحبتهم- ثم اتخـاذ السياسـة الشـرعية في حـربهم، فلا هجـوم على عـدو إلا باسـتعداد

مماثل لإستعداده، وبقوة مقاربـة لقوتـه، وتقـديم الأهم على المهم واجب، والعدو الملاصق قبل العدو البعيد ولا شك أن المسلمين في أثناء ذلك لا بد لهم من مهادنة بعض الأعداء ليتفرغـوا إلى بعضـهم، ويحـدد هـذا السياسـة الشرعية الواعية المرحلية.

وعندما ذكرت اليهود والنصارى والمجوس فـإني ذكـرت فقـط المتعصـبين منهم الداعين لمذهبهم الباطل، المريدين للمسلمين الكفر السـاعين بينهم بالفساد والإفساد، واما المعتدلون منهم. الذين يعيشون في أوساطنا، وقـد انتموا إلى عروبة هذه الأمة. ولم يكرهوا دينها، ولم يحـاربوا رسـالتها فلهم حقوقهم وعليهم واجباتهم، ولهم منا كل بر وإقساط وعدل ومرحمة.

ولن تفلح الوسائل السطحية التافهة، والخطب الرنانة الجوفـاء -بعـد- في حرب المتعصبين للمذاهب الباطلة من أعدائنا. فإن المكر والخداع والخبرة الطويلة في قـرون متعاقبـة - لحـرب الإسـلام والمسـلمين من أولئـك قـد مكنهم من معرفة الأساليب الخبيثة. والمفرقة في الكيد والمكر. ولـذلك لا بد من دراسة واعية مستفيضة لكـل أسـاليب حـرب الإسـلام والمسـلمين، وإذلال دولته حتى يكون التصدي لهـذه الأسـاليب على مسـتواها، وإلا كـان جهاداً هزيلاً يظهـر للعـالم ضـعف الإسـلام لا ضـعف المسـلمين، ومـا هابـه الإسـلام في أعين كثـير من النـاس إلا يـوم هابـه المسـلمون عن رد كيـد أعدائه، وضعف شأنهم في رد مكرهم. وقد يكون الرد السـاذج التافـه على أعداء الإسلام، والتصدي الضعيف الـواهن، والجهـاد الخـاطئ أشـد إفسـاداً لرسالة الإسلام وإضعافاً للمسلمين من كيد الأعداء أنفسهم.

ولـذا لا بـد وأن يكـون المسـلمون على مسـتوى مسـئولياتهم في العصـر الحاضر.

فعلماؤنا الفضلاء الذين لا يدرون شيئاً عن الجمعيـات السـرية للأعـداء، ولا يدرون كثيراً عن مخططـاتهم، ولا يدرسـون شـبهات أعـدائهم، ودسـهم لن يصـلحوا بتاتـاً في الـرد على كيـد أعـدائهم، ولن يسـتطيعوا تخليص شـباب الأمة من مخالب هذا الكفر البغيض.

وقد أُلِّفَتْ والحمد لله عدة مؤلفات تبين كثيراً من هذا الدس الخبيث قديماً وحديثاً أذكر منها على سبيل المثال لا الحصـر ليسـتنير بهـا دعاتنـا الكـرام، وعلماؤنا الأفاضل في حربهم لأعدائهم: (التبشير والاستعمار، والغـارة على العــالم الإســلامي، حصــوننا مهــددة من داخلهــا، وفي وكــر الهــدامين، وبروتوكولات حكماء صـهيون، واليهـودي العـالمي، الاتجاهـات الوطنيـة في الأدب المعاصر). هـذا بالإضـافة إلى كتب الجاسوسـية الأمريكيـة، وفضـائح المــذابح الشــيوعية وحــرب الإبــادة للمســلمين في بلادهم، ومنشــوراتهم الرهيبة لحرب الإسلام والمسلمين.

إن هذه المعرفة بهـؤلاء الأعـداء سـتنير لنـا الطريـق، وتوضـح لنـا معالمـه، وبذلك نأمن في مسيرتنا نحو النصر هذه الأفاعي الخبيثـة المبثـوث بعضـها في طرقنا بل وفي بيوتنا وداخل حصوننا.

وما لم تكن هذه الكتب وأمثالها مدروسة مقروءة على المستوى الإلــزامي العــام، ومقــروءة على المســتوى الشــعبي الجمــاهيري، ومفهومــة لــدى

الداعين الواعين فإن هذه الأمة ستظل في التيه والحيرة لا تدري من العدو ومن الصديق، ومن الذي يصادق، ومن الذي يحذر.

والمشكلة في هذا أن العدو الداس الواحد يستطيع تفريق الأمة، وتشتيت رجالها إن هو أحسن استخدام أساليب المكر والخداع وكم من أعدائنا من يحسن ذلك!!

ما حجم قواتنا؟

لم يبق في هذه الرسالة إلا هذا الفاصل، أحببت أن أختم به نفيري لأمتنا العزيزة معرفاً رجالها وقادتها -وكثير منهم يعلم- حجم قوتهم، ومقدرتها.

وإذا كانت الفصول السابقة من رسالتي هي بناء أو محاولة لبناء الجانب العقدي الإيماني في رجالنا. فإن هذا الفاصل المجمل هو لبيان الجانب المادي، المقومات المادية لأمتنا.

وإذا كانت أمتنا تحتاج -حتى تكون على مستوى سوي أفراداً وجماعات- العقيدة الواحدة الدافعة (الإيمان) والتشريع الواحد، والخلق الكامل. فإنها تحتاج كذلك في بنائها المادي إلى التنظيم الشامل الكامل.

فما مقدرات أمتنا المادية؟ وما مقدرتنا نحن على استخدامها؟

لن أطيل كثيراً في هذا فليس هذا من اختصاصي ولكني سأذكر خطوطاً عريضة فيه أراها لازمة لقيام أمتنا وبعثها من جديد.

فأما الله سبحانه وتعالى فإنه قد مَنَّ على هذه الأمة بكل مقومات القوة: فالموقع الهام في العالم، والمناخ الأفضل، والأنهار الجارية. والمياه المتوفرة، والتربة الصالحة، والأرض الخالية، والرجال الأقوياء، والكنوز المدفونة، والعدد الصالح العظيم، والاستجابة للحق عند رجالها، والشهامة والمروءة، كل هذا والحمد لله متوفر، لم يحرم الله منه أمتنا. ولكن كلنا يعلم أن جميع هذه المقدرات ضائعة تالفة.

فموقعنا الممتاز أصبح نهباً للأعداء، وأرضنا، وأنهارنا بلا استغلال أو باستغلال تافه، وأموالنا في مصارف أعدائنا. وفي أيدي سفهائنا، ورجالنا في شتات وضياع فأهل العلم المادي والخبرة منا يهملون في أوطانهم ويهانون، ويكرمون عند أعدائنا فيهربون إليهم ويكونون عوناً لهم علينا، وكنوزنا من الذهب الأسود لا نستفيد منها إلا قليلاً لعدم قدرتنا على التحكم في استخراجها والهيمنة على شركاتها وكنوزنا من الذهب الأصفر والعملة السائلة مودعة بمصاريف أعدائنا يستغلونها كل الاستغلال حتى في حربنا وإنهاك قوتنا ومساعدة عدونا.

ولست أدري كيف كان يمكننا أن نحارب إسرائيل، ومالنا ليس بأيدينا، والمال عصب الحرب الطويلة الناجحة. إننا نحتاج قبل هذه الحرب إلى أن تكون أموالنا بأيدينا، وأعني بهذه الكلمة أن يكون حفظ غطائها الذهبي -ببلادنا، وأن يكون لنا عملة معترف بها دولياً، وأن تكون استثماراتنا لنا، ونحن الذين نهيمن على أموالنا، وبالطبع لن نستطيع فعل ذلك إلا إذا

استقر الأمن والنظام ببلادنا، وانتهت مظالم تأميم الأموال والشركات، وأصبح رأس مال الأغنياء الشرفاء يتمتع بالحماية والأمن. وبذلك تبرز رؤوس الأموال المخبوءة ببلادنا، ويفد إلينا ما غاب عنا بمصارف أعدائنا. وبالطبع سيعمل هذا على رواج الصناعة والزراعة في مجتمعاتنا المنكوبة. وسيكون هذا عماداً لحرب طويلة مع العدو.

وأما الرجال فنحن نملك منهم ما نستطيع أن نسود به الدنيا لو ربوا التربية الإسلامية العسكرية الجادة، وعلموا كيف يبذلون أرواحهم ودماءهم لا يبغون إلا أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى. ولكن لا يقف دون هذه الغاية إلا خوف ضعاف حكامنا على مراكزهم، ولكن ليعلموا أن تسليح شعوبهم، والنهوض بها عسكرياً وإيمانياً هو أقوى الدعائم التي تحفظ لهم ملكهم وعزهم، وذلك أن الشعوب والأمم مفطورة على حب وتعظيم الحكام المخلصين الصادقين.

وأما الخبرة العلمية فهي متوفرة في رجالنا المسلمين المخلصين ولكنهم يحاربون في أرزاقهم ونبوغهم من ذوي النفوس الضعيفة الذين يحبون السيطرة بجهلهم ولذلك يعادون العلم وأهله، ويقدمون المنافقين المتزلفين، ولذلك يرحل أهل الخبرة والعلم المادي من بلادنا إلى بلاد الكفر حيث يلاقون هناك التكريم والتبجيل والدرجات العلمية، والثراء!! ولكن إذا سرت الروح التي أرجو أن أكون قد أوضحت طريقها في هذه الرسالة -في أمتنا- فإننا سنعرف لأهل الفضل فضلهم، وسنكرم علماءنا، وأهل الشجاعة والقوة منا،! وسيعود إلينا أبناؤنا المغتربون إذا علموا أن بلادهم وأمتهم أصبحت حيث يستطيعون أن يفدوها بأرواحهم. ولا تعجب إن رحل إليك من يشرح الله صدره من علماء الذرة الذين يشرح الله صدورهم للإسلام، وهم موجودون ولكنهم يريدون فقط الأمة التي يبذلون لها أرواحهم وأنفسهم.

لقد سرق الغرب (أمريكا) والشرق (روسيا) أسرار القنبلة الذرية من العلماء الألمان، واستطاعت الصين وفرنسا بطرقهما سرقة ذلك أيضاً، واستطاعت إسرائيل أيضاً الحصول على شيء من هذا، ولا تعجب إن كانت تملك القنبلة الذرية الآن. فلماذا نكون أقل حتى من إسرائيل. والحرب خدعة.

إنني لن أطيل في هذا الفصل ولكني أضع خطوطاً عريضة فيه، وذلك أنه ثمرة حتمية لبعث روح هذه الأمة، وجمع صفوفها فما علينا إلا أن نبعث الروح وإذا بهذا الجسم الخامد الخامل ينتفض عملاقاً لا يستطيع أحد أن يقف في طريقه بعون الله، وذلك أن روح هذه الأمة نابعة من نور الله، وأن حبلها موصول بالسماء، وأمة هذه روحها لا تغلب، وأمة هذا حبلها لا ينقطع. ولقد انتصر سلف هذه الأمة على قلة وضعف وهزموا أضعاف أضعافهم قوة وجمعاً، فكيف ولدينا القوة والجموع؟

من أين نبدأ وكيف نبدأ

أظن أنني بما قدمت -في رسالتي هـذه- قـد أوضـحت الإطـار العـام الـذي يجب أن نعمل فيه لبعث أمتنا من جديد وهو باختصار يشمل ناحيتين:

الأولى: بعث روح الأمـة، وتوحيـد صـفوفها: وذلـك ببث العقيـدة الواحـدة الدافعة (الإيمان الكامل) ووضع التشريع الإسلامي الواحـد موضـع التنفيـذ، وبناء الخلق الكامل في رجال أمتنا ونسائها.

الثانية: البناء المادي الكامل للأمة وذلك باستغلال الأمة مـا وهبهـا اللـه من مميزات جغرافية، وبشرية، واستعادتها لثرواتها الضائعة، وكنوزها المنهوبة.

وبذلك يصبح البناء كاملاً: الجسم والروح.

وهنا سيأتي هذا السؤال: من أين نبدأ، وكيف نبدأ؟

أما نقطة البدء للعمل في بعث أمتنا فلا يجـوز أن تكـون ناحيـة واحـدة من النــواحي الســابقة تعطــل لأجلهــا النــواحي الباقيــة. فبعض المصــلحين المخلصين يقولـون: نـدعو إلى الإيمـان أولاً فإننـا أشـبه مـا نكـون بالعصـر المكي من دعوة الرسول! وآخـرون يقولـون القـوة الماديـة أولاً. وآخـرون يقولون بل نحرر الأرض المحتلة أولاً!! ولقد وضعت الرسـالة خصيصـاً لمن يقول نحـرر الأرض أولاً ومبينـاً أنهـا نتيجـة لبعث الأمـة، ولا يمكن أن تحـرر أرضنا المحتلة أمة بهذا الموات والتفكك والضعف.

والحـق أن نقطـة البـدء في الإصـلاح لا يجـوز أن تكـون في ناحيـة واحـدة ولكنها يجب أن تبدأ حيث يوجد كل فـرد فينـا. فأهـل الحكم مطلـوب منهم إصلاح حكمهم ليكـون إسـلامياً، وأهـل المـال مطلـوب منهم إصـلاح نظـام ثرواتهم واسـتثماراتهم حـتى يكـون إسـلامياً. وأهـل العلم الـديني مطلـوب منهم إصـلاح أنفسـهم ومعـاملاتهم. وتوحيـد فتـاواهم واجتهـاداتهم وتـرك تعصبهم المذموم لما عرفوه، ومعاداتهم الجاهلة لما جهلوه، وجمـع النـاس على كلمـة سـواء، وشـعراؤنا وكتابنـا مطلـوب منهم أن يبعثـوا روح الأمـة بالكلمة الطيبة، سواءً كانت قصةً أم شعراً، أم مقالة..

إن الإصلاح يجب أن يكون دعـوة عامـة تسـري في الأمـة جميعهـا سـريان الدم من القلب في جميع الأعضاء لتحيا الأمة كلها.

وأحب وأنا أعين نقطة البدء أن أقول وأكرر أن تحريـر فلسـطين يسـتحيل عقلاً وعادة أن يكون نقطة بدء لحياة الأمة ولكنه سيكون ثمرة من ثمـرات حياتها وسأسوق الأمثلـة والبرهـان. لقـد دخلت الجيـوش العربيـة المعركـة الأولى في فلسطين ولقد كانت أقوى من جيش اليهـود بعشـرات المـرات ولكنها هزمت للأسباب التي يعرفها الجميع وكان من هذه الأسباب ما قــال عنـه جمـال عبدالناصـر في كتابـه فلسـفة الثـورة: "إني أيقنت أن تحريـر فلسطين لن يأتي إلا بإصلاح الحكم". ولقد عاد هو ورفاقـه بعـد أن أسـروا في (الفالوجة)، وذاقوا مرارة الهزيمة ليشعلوا ثـورة 23 يوليـو سنة 1952، وقد مكنهم اللـه من الحكم ولقـد كـان الهـدف الأول لهم هـو تحرير فلسطين ولكنهم خابوا في ذلك بعد عشرين عامـاً مضـت لهم فيـه، والسبب في ذلك أن الإصلاح لم يكن شاملاً، لقد كان الإصـلاح للجيش أولاً

ولقد ظنوا أن إصلاح الجيش هو العتاد الجيد، فلما جـاءت المعركـة لم يغن العتاد الجيـد من بـأس العـدو شيئاً إذ سـرعان مـا تصـدع هـذا الجيش في ساعات قليلة، وترك ما خوله الله من هـذا العتـاد في أرض سـيناء للعـدو، ولم يقف أمام اليهود على القتال إلا أفراد قلائل باعتراف جمال عبدالناصر نفسـه. ثم ظهـرت بعـد ذلـك مشـاكل عظيمـة في الجبهـة الداخليـة وفي النظام الأخلاقي المتردي الذي مارسته أجهـزة الدولـة وخاصـة المخـابرات والأمن العام. وعدنا من حيث بدأنا نبحث عن الحل!!

ولقد دخل مع الجيوش العربية جماعـات من المتطـوعين كـان من أكبرهـا جماعة الإخوان المسلمين. وظنوا أنهم سيستطيعون تحرير فلسطين، وأن ملائكة الله ستنزل عليهم لأنهم مؤمنـون ولكنهم سـرعان مـا أيقنـوا أيضـاً أنهم لن يستطيعوا ذلك لأنهم عادوا إلى المعتقلات والسجون.

وهـا نحن نعيش تجربـة المقاومـة الفلسـطينية. لقـد قـامت فتح في عـام 1965 سرية تغافل حراس الحـدود العـرب، وتـدخل أرض العـدو، ثم تعـود جماعات منها فرحـة بمـا قـدمت من تضـحية ومـا حققت من رعب للعـدو ولكنهـا كـانت تلاقي القتـل برصـاص إخوانهـا العـرب في سـوريا، والأردن، وتمنـع منعـاً باتـاً من الـدخول من مصـر. ولقـد كـانت فرحـة منظمـة فتح باشـتعال حـرب سـنة 1967 لا توصـف لأنهـا ظنت أنـه بمجـرد أن تقـوم المعركة فإننا سننتصر على العدو، ولكن الجميع خابت آمالهم بعد الهزيمـة الماحقـة الـتي أصـابتنا، ثم أصـبح العمـل الفـدائي علنيـاً، وانطبعت عليـه مشاكل الأمة، ونزاعاتها، وفرقتها، وخلافاتها فكان ما كـان في الأردن، وهـا هي المقاومـة تتقلص شـيئاً فشـيئاً، وتعـود تجربتهـا إلى الخيبـة والتمـزق والضياع، وذلك أن الإصلاح لا يكون من هناك، من فلسطين، ففلسطين قد ضـاعت لأن الأمـة قـد مـاتت وكـان من الممكن أن يضـيع جـزء آخـر غـير فلسطين لو كان لأحد غيرنا أطماع فيه وهذا هو المشاهد الآن في كل جزء لنا فيه مشكلات. فنحن نرى دائماً أننا أعجز من أن نحارب أي عدو يغزونا.

والآن تتفجـر علينـا المشـكلات من الشـرق والغـرب: من شـمال العـراق وجنوب الجزيرة وشرقها، وشمال إفريقيا، وقلب مصر، وجنوب السـودان، وإن لم تصح الأمة فسيكون مصير كل ذلك هو مصير فلسطين.

إن الإصلاح يجب أن يعم كل زاوية وناحية من نـواحي مجتمعنـا الإسـلامي، ولا يجوز أن يقتصر على جانب دون جانب، وإن الذين يملكون هذا الشمول هم الحكام لو أرادوا، وأخلصوا النية لله، وأحبوا أن تجعلهم الأمة مع سلفها الصالح المجاهد وأما الأفراد والجماعـات فـإنهم لا يملكـون إلا نـواح ضـيقة من الإصلاح والبناء عـدا عن وسـائل الهـدم والتخـريب الـتي لا يسـتطيعون إيقاف هدمها وتخريبها. ولذلك فكل دعائنا أن يكـون في حكـام المسـلمين من يصلح الله بهم الأمة. ولكن الأفراد والجماعات لا ينبغي أن تنتظر ذلك، بل لا بد من بعث لروح الأمة، وإيقاظ لرجالها وتوجيه لمصلحيها في الوجهة الصحيحة، وهنـا تتحـدد نقطـة البـدء حيث يكـون الفـرد. فالعـالم المسـلم يسـتطيع أن يحـدد نقطـة بدئـه في مجـال الإصـلاح -حسـب هـذه الخطـة الشاملة- حيث تهيئ له نفسـه وإمكانياتـه ومـا خـول اللـه فيـه، والمهم أن ينسجم هذا العمل مع خطة البعث الكامل وأن لا تتضارب معه، والتضـارب

مـع الخطـة يـأتي مثلاً من الـدعوة إلى العصـبيات المذهبيـة، أو التعقيـدات العقديـة، أو الخـوض فيمـا لا يعلم.. والعـالم (الـدنيوي) المسـلم يجب أن يكون داعياً بعمله وخلقه إلى عزة الإسلام، وتطبيق شريعته التي هي ثمرة النظر في السـموات والأرض، مسـخراً علمـه في رفـع شـأن أمتـه، وعلـو رايتها، وكـذلك الأديب المسـلم - شـاعراً أو قاصـاً أو كاتبـاً، يجب أن يكـون بـدؤه للإصـلاح من كتابتـه وشـعره وقصـته فيسـخر ذلـك في توجيـه الأمـة لدينها، وحضها على حمل رسالتها، وغسل العار عنها، وهكذا..

وعلى هذا الأساس سنبني، وسيصبح التخصـص هامـاً ولازمـاً لكـل داع إلى الله عز وجل، لأن بالتخصص يكون الإبداع والعناية، وسيفيدنا هذا التخصص ما دام أن الخطة الكاملة العامة ملتزم بها. فكـل هـذه الخطـوط سـتلتقي عند غاية واحدة وهي البعث الجديد لأمة الإسلام.

ولا يبقى بعد إلا أن أحذر مما يقع فيه كثير من الـدعاة إلى اللـه وهـو هـدم بعضـهم البعض، وذلـك لسـبب نظـرتهم السـطحية الجزئيـة إلى الإصـلاح، فالبعض يظن أن الإصلاح لا يـأتي إلا من إصـلاح الحكم فقـط فيجعـل همـه ذلك ويحطم كل إصلاح قبل هذا وهذا خطأ فاحش، وآخر يظن الإصلاح إنما هو إزالة بدعة ما، أو منكر ما، فيدعو لذلك، ويسفه أحلام من دعا إلى غـير ذلك بل قد يحول دعوته من غايتها الجزئية إلى تحطيم من يخالفونه الـرأي ويختلف معه في الطريقة. وآخرون يأكـل قلـوبهم الغـيرة والحسـد إذا رأوا أن الإصلاح سيأتي عن غير طريقهم فيقللون من شأن الآخـرين، ويهـدمون ما بنوه ولهذه الأسباب وغيرها يتفـرق عمـل المصـلحين ويتشـتت سـعيهم ويكون أغلب همهم حربهم لبعضهم البعض فيغفلـون عن غـايتهم الواحـدة، وطريقهم الواحد.

وأخـيراً إن الـدعوة لبعث الأمـة وإحيائهـا يجب أن تكـون في كـل نـواحي حياتها، وقد بينت هذا الطريق آنفاً، وإن نقطة البداية يحددها الموقـع الـذي يكون فيه المصلح، والذي يملك الشمول هم الحكام -هداهم الله- ولا يجوز بتاتاً أن يهدم مصلح عمـل آخـر بـل يجب أن يتم البنـاء في جميـع النـواحي دون هدم من بعضنا البعض.

وأما الإجابة على السؤال الثاني، وكيـف نبـدأ؟ فهي إجابـة سـهلة متيسـرة لأنه متروكة للاجتهاد والظروف، فلنجاهد في اللـه حسـب الخطـة السـابقة وليكن الله هو هادينا ومرشدنا إلى كيفية العمل وهذا فضل اللـه يؤتيـه من يشاء، وهذه وسائل ولا يجوز أن تحجر في طريقـة مـا، ولا في وسـيلة مـا. ولكن السـمة الـتي يجب أن تطبـع دعوتنـا إلى إحيـاء الأمـة هي (السـلمية والعلنيـة) نحن دعـاة سـلم لأمتنـا وحـرب على أعـدائنا فقـط وأعـداؤنا هم أعداء ديننا فليس لنا مطامع خاصة، ولا مآرب ذاتية، وإنما مطمعنـا ومأربنـا هو وحدة أمتنا وعزتها، ومأربنا هـو إرضـاء ربنـا والفـوز برضـوانه. والعلنيـة طريقنا فليس عندنا ما نتستر بـه، أو نخـاف من أجلـه، ليس عنـدنا إلا قـال الله، قال رسوله فقط وكل قول يخالف هـذا فباطـل، ومـا زال في صـدور أبناء أمتنا فسحة لتسمع عن الله وعن رسوله.

خاتمة

لا يسعني بعد وأنا أودعك -أخي القارئ- إلا أن أحمد الله إليك وأشد على يديك، وأقول لك: لقد أهديتك زهرة شبابي، وثمرة عمري، صغتها في كلمات أرجو أن يشرح الله صدرك لها فإن وجدت فيها بغيتك، وخلاص أمتك، فاعلم أنك قد حملت بذلك أمانة عظيمة يسر الله لك سبيل حملها والسير فيها. وإن لم تكن قد أعجبتك. فأرجو أن تعاود الكرة فتقرأها مرة ثانية -فوالله ما افتريت فيها شيئاً- وإن كنت قد رأيت ذلك أملاً بعيداً، ومنالاً لا يوصل فاعلم أن أمتك قد بلغت بمثل هذه الخطة آمالها؛ ولن تبلغ أملها الحاضر إلا بها، واعلم أن حياة الأمة بالإسلام أسرع من حياة زرع قد اشتد عطشه بالماء، فالرجل الكافر بكل ما في الكفر من موت ومتناقضات كان يقول لا إله إلا الله فيكون رجلاً آخر، والأمة العربية كانت ما تعلم من التمزق والضياع فبلغت في أقل من مائة سنة حدود فرنسا والقرم شمالاً وبلاد الصين شرقاً والمحيط غرباً وأواسط أفريقيا والمحيط الهندي وبحر العرب جنوباً، وإياك وقول العوام (نحن في آخر الزمن) يعنون أنه لا فائدة من الإصلاح، فذلك باطل، بل الجولة القادمة لنا، ولا بد لنا والله من إخراج يهود من فلسطين طال الزمن أم قصر بهذا أخبر الصادق المصدوق رسول الله: [لتقاتلن اليهود حتى يقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبدالله ورائي يهودي فاقتله] فليشدك الحنين إلى رفعة أمتك أن تكون فرداً من جنودها يسير في هذا الركب المظفر: {ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم}.

وختاماً، "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب".

****

****

***